رواية

ماجد سليمان

دمٌ يترقرقُ
بين العمائم واللِّحى

حُلَّة جديدة 2022

ماجد سليمان

دَمٌ يَتَرَقْرَقُ
بَيْنَ العَمَائِمِ واللِّحَى

الإنتاج الإبداعي للكاتب:

- **عينٌ حمئة** (رواية) طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن ٢٠١١م
- **دمٌ يترقرق بين العمائم واللحى** (رواية) مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠١٣م
- **طيور العتمة** (رواية) دار الساقي، بيروت ٢٠١٤م
- **نجمٌ نابضٌ في التراب** (قصص) أدبي الجوف ٢٠١٣م
- **قبّعةٌ تطير في الرّيح** (قصائد ونثائر) أدبي المدينة المنورة ٢٠١٤م
- **وليمةٌ لذئاب شَرِهة** (مسرحيّة) أدبي تبوك ٢٠١٦م
- **كبسولة حياة** (فيلم قصير) ٢٠١٧م
- **شرق الأرض، غرب البحر** (مسرحيّة) أدبي الجوف ٢٠١٨م
- **ما روته كاميليا** (حكايات) أدبي الرياض ٢٠١٩م
- **ليلُ القبيلة الظّاعنة** (ملحمة) أدبي الحدود الشمالية ٢٠١٩م
- **نسوة السوق العتيق** (سيرة روائية) نشر ذاتي ٢٠٢٠م
- **٢٣ أبريل** (مقالات) نشر ذاتي ٢٠١٥م
- **ملاذ أخضر** (شعر محكي) نشر ذاتي ٢٠٠٨م
- **أجراس** (قصيدة للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م
- **الصندوق** (قصة للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م
- **الآباء** (مسرحية للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م
- **صهيل القوافي** (مختارات) نشر ذاتي ٢٠٠٣م
- **نزف الشعراء** (شوارد) نشر ذاتي ٢٠٠٤م
- **شعراء من عائلتي** (مطويّة) نشر ذاتي ٢٠٠٧م

ماجد سليمان

دَمٌ يَتَرَقْرَقُ
بَيْنَ العَمَائِمِ واللِّحَى

روايــة

حُلَّة
جديدة

دم يترقرق بين العمائم واللحى

ماجد سليمان (السعودية)

Majed suleiman

تصنيف الكتاب: رواية

عدد الصفحات: ٢٠٦

تصميم الغلاف والإشراف الفني: ماجد سليمان

الناشر: نشر ذاتي

(حُلَّة جديدة) ٢٠٢٢م

لغة الكتاب: العربية

جميع الحقوق محفوظة

majedsuleimann@gmail.com

صَدَرَت الرواية أوَّل مرَّة عام ٢٠١٣م

عن مؤسسة الانتشار العربي ـ بيروت

فُصُوْلُ الرِّوَايَةِ:

الفصل الأول: سحابةُ الليل تُرسلُ بَرقاً أَعْمَى.

الفصل الثاني: عَرَبَةُ كهَانَةٍ تَجُرُّها الريح.

الفصل الثالث: بِشارةٌ يَجلبها المَرَدة.

الفصل الرابع: بعضُ أمنياتٍ تَتَداعى ببطء.

الفصل الخامس: عشقٌ يتطاولُ كالعمر البعيد.

الفصل السادس: لحنُ الأمس يُدندن في الروح.

الفصل السابع: جَحَافِلُ المَوتَى تَعبُرُ الطُّرقات.

الفصل الثامن: الموتى يَنسُجُونَ الأكفان.

الفصل التاسع: موتٌ يَسبحُ في الطُّرقات.

الفصل العاشر: صوتٌ يَقطُرُ مِنهُ الأنين.

الفصل الحادي عشر: دمٌ بطعم الماء.

الفصل الثاني عشر: أسنّةٌ تُقلِّب أحشاء القلب.

الفصل الثالث عشر: أصابعُ تلمس أوتار الأسى.

الفصل الرابع عشر: مَصَايرُ مُخلّعة.

الفصل الخامس عشر: أجسادٌ تتدثّرُ بالدم.

الفصل السادس عشر: وَتَدُ الألم يَضربُ عَميقاً.

الفصل السابع عشر: أرضٌ تتمزَّقُ هَمّاً.

الفصل الثامن عشر: نَهدٌ يتَأبّطُ الموت.

الفصل التاسع عشر: سُفُنُ الفَجَائع.

الفصل العشرون: وَقعُ خَطَوات الموت.

الفصل الحادي والعشرون: مجدٌ أحمر.

الفصل الثاني والعشرون: أعينٌ تتكحَّلُ بالجمر.

الفصل الثالث والعشرون: دمٌ يَقطُرُ من سوط الماضي.

الفصل الرابع والعشرون: نُتَفُ ذكرياتٍ تَلطِمُ الذَّاكرة.

الفصل الخامس والعشرون: بأيِّ شيءٍ إلا الموت.

الفصل السادس والعشرون: ظُلُماتٌ لا يُفتِّتُها الضَّوء.

الفصل السابع والعشرون: زُمرةُ الأشقياء تقرأُ دفتر المعصية.

الفصل الأخير: جنائزُ تُمزّقُ الأكفان.

هـذه الروايـة مـن نسـج الـخيال، وأيّ شَـبَهٍ بـين أشخاصـها وأحـداثها وأماكنهـا، مـع أشـخاص حقيقيـين وأحـداث حقيقيّـة، هـو مـَحضُ مُصادفة، ومُجرّدٌ عن أيّ قصد.

الحُريَّةُ لا تُعطى، بل تُنتزعُ انتزاعاً.

. . . .

الشخصيات بحسب الظهور:

١	علّال	١٦	مجنون مينار
٢	سُلافة	١٧	الوفد
٣	ملك مينار	١٨	الأسير الأخير
٤	الكاهنة خندريس	١٩	غساق الشاعر
٥	السبع	٢٠	مولى الملك
٦	الكلب شميم	٢١	الجلاوزة
٧	العطار	٢٢	السقاؤون
٨	رشيد	٢٣	الجارية
٩	الصبي الأبيض	٢٤	الراهب
١٠	النسوة الثلاث	٢٥	أم ميراد
١١	الأسرى	٢٦	الصبي ميراد
١٢	العجوز ربيبة	٢٧	الزوجان
١٣	الفوج	٢٨	الجنود الحليقون
١٤	خبابة زوجة الملك	٢٩	الفتاة وبغلتها
١٥	رئيس الحرس	٣٠	أحد كبار الحرس

٣١	أمير القبيلة	٤٦	العجوز صاحبة العربة
٣٢	قاتل كبير الحرس	٤٧	ثور العربة
٣٣	السجناء الثلاثة	٤٨	المرأة ذات التميمة
٣٤	السجين الأمسح	٤٩	الطفل ذو الأشهر
٣٥	السجينان الأخرسان	٥٠	المارد
٣٦	أم الأمسح	٥١	زوج خبابة الأول
٣٧	الوزير	٥٢	أمَة زوجة الملك
٣٨	راوية	٥٣	الطبيب
٣٩	زوج راوية	٥٤	طيف سُلافة
٤٠	أخو راوية الصغير	٥٥	سائس خيل الملك
٤١	المرأة المليحة	٥٦	رسول الملك
٤٢	الرجل الكث الشارب	٥٧	الأربعيني الأعور
٤٣	نائب الوزير	٥٨	موليا الملك
٤٤	الراعي الأغبر	٥٩	الثوّار
٤٥	المقبور	٦٠	رئيس المراقبين

الفصل الأول:

سحابةُ الليل تُرسلُ بَرقاً أعمى

اخترق سمعهُ خلخال قدمين تُـمطِرَان الأرض بِوَابل رقصهما، أدار رأسه الحليق بخفَّة فَبَرَزت له ساريةٌ طينيّةٌ تنتهي إلى زقاق ضَيّق، عَلَّق بصره وسمعه بخيطٍ شديدٍ إلى ما يدور خلفها، مَطَّ شفتيه وأطلَّ بعينيه الصغيرتين اللتين اتَّقدتا كجمرتين ملتهبتين، ليراها فَرَساً ترقص بخفّة وكأنَّ النار من تحتها، يُحيط بها جمعٌ من النساء المتفاوتات في السنّ، يكاد خلخالها يجازف بنفسه وهو يحيط بمفصل ساقها الدقيقة، وهي تلهبه بكلِّ ميلانٍ لها على سطح الأرض الترابيّ.

انتصبت عيناه أكثر من هول ما رأى، خفض رأسه وأسند ظهره إلى السارية وأخذ يُهدّئ شهقةً انطلقت لتَدُكَّ أضلعه، أغمض عينيه بقوّة، لا شيء تحت أجفانه الآن سوى تلك المرأة التي تحابيها الأرض كي لا تتأذّى، فأيّ سحرٍ رآه الآن.

فَتَح عينيه مرهقاً أجفانه على اتساعها، ثم أعاد التجسُّس مرّة أخرى على المنظر الذي أرسل اللظى إلى روحه، تأمّل قدّها الذي يحاول ثوبها أن يمسك به، فرغم شدَّة التصاقه بها إلا أنه لا جدوى من التصاقه بجسدٍ يكاد ينزلق من تحته ومن فوقه.

حَثَّ روحه على بذل التماسك، فظهرها النحيل يتصدّى للريح بذكاء، كلُّ شيء في فضائه الآن لم تعد تطيق روحه الهشّة حمله، كَفَّ طرفي ثوبه وَعَاد ليكمل طريقه حيث كانت وجهته.

لا شجاعة تدفعه للمضي، فصوت خلخالها ما بَرِحَ يرنُّ في أذنيه، حيث صار شاهداً على القدّ الزئبقي وهو تحت مناوبة الأرض والسماء كي لا ينفلت من بينهنَّ.

أدار رأسه مرّة أخرى لكن لا جدوى من المحاولة، عليه أن يعرف من أي عرشٍ نزلت هذه الملاك، لقد أطاحت بقلبه إلى دركات العشق وَزَرَعت في حرث روحه أعواد الاشتياق، رآها ترقص على قدمٍ وتدور على رؤوس الأصابع، التهب فؤاده الذي سال على جنبات عروقه حُبّ المصادفة، اختلس النظر مرّة أخرى ليراها وهي تغرف بين يديها غَمْراً من الماء البارد وتغسل به وجهها وتخلخل ببللِ أصابعها الطويلة الناعمة شعرها الطويل، ليحطّ على أغصان سمعه صوت إحداهنّ وهي تناديها باسمها:

ـ سُلافة.

تَعَطّرت أذنه، اسمها سُلافة، فقال بلسانٍ غارقٍ في لعابه:
- تبارك الاسم وصاحبته.
رَفَعَ رأسه فرأى القمر يُقشِّر دائرته وينغمس في أثواب السماء المظلمة، فلم يعد هناك سوى بعضِ يتامى النجمات المطفآت.
الباب الذي بدأ ينفتح من الجهة الأخرى للسارية، اندفعت من فمه جماعات من اللاتي غادرن الحفل، وضحكهنّ يتصاعد بغنج ومزاح، كيف لبصره الضعيف أن يقتنص الفَرَسَ التي كانت قبل دقائق تُوحش الأرض بتسلسل ترفها على رملها الأحمر الناعم؟
جاء صوت خلخالها من بين جماعة كانت قد خَرَجَت قبل الأخيرة، انتهى وقعه على صفحة قلبه الخليّ من وَهْج الحسناوات، رآها تَعبُرُ زِقاقاً ضيّقاً من الناحية الجنوبيّة للسارية، التفت يمنة ويسرة فلا أحد يدري بنيّته باتباعها، فانزلق خلفها، وحين انعطفت ناحية الزقاق الآخر ألصق جسمه النحيل إلى زاوية الزقاق الطينيّة، فتداعى إلى أنفه رائحة الطين المعجون بالتبن، وصوت كهلٍ ينادي امرأته بغضب:
- يا امرأة يا امرأة أحضري الماء الساخن عاجلاً.
أزاح رأسه عن الجدار لينحني ببصره خلفها، رآها تعبر برشاقة لم تخطر بباله البتَّة، أعاد الالتفات إلى ما حوله ثم اندرج خلفها لكن ليتعثَّر هذه المرَّة بحجرٍ نَهَضَ في طريقه فجأة، فوقع على وجهه ووصل صوت وقعته إلى سمعها لتلتفت كغزال أُذعر بسهمٍ أخطأه.

أرخت النقاب عن عينيها قليلاً لتراه ينفض التراب الذي التصق بردائه ويحكُّ جبهته المعروقة من خوفه وحرصه على ألا يراه أحد.

أيُّ قَدَرٍ جعله يقع في ما هو فيه، وَقَفَ حاملاً جسمه فوق ساقين دقيقتين وأشار لها بيده أن المعذرة على ما بَدَر منه، فلم يتحرَّك منها إلا أهدابها الطويلة التي رمته بحقدها ثم انصرفت ليقف مبتور الحيلة.

التفت خلفه ليرى امرأة تقف في الظلام البعيد، تمسك جديلتها وتعبث فيها برؤوس أصابعها، ظنَّ أنَّه رأى شبحاً يتمثَّل في شكل امرأة، نادى بصوت مُرتعد:

ـ مَنْ هناك؟

لم تتحرّك شفتها بحرف واحد، أطلقت جديلتها من يديها وغاصت في الظلمات.

***

هو الولد الوحيد لأبيه حيث توفيت أمه بعد ساعات من ولادته العسيرة، ليعيش في كنف أبيه الذي أسماه "علّال" فقد رَقَّ له ولم يُدخل عليه زوجة أبٍ خوفاً عليه من سُلطة زوجات الآباء.

وحين شارف على سنواته الثماني عشرة أفقده الملك أهله، حيث أرسل أباه وأبناء عمومته في حربٍ مع إحدى القبائل، وجيء بهم جنائز مُغلقة عليها التوابيت الخشبيّة، والمحمولة على ظهور الجمال، وهي العادة التي لا تنفكّ عن الملك حيث يدفنهم في مقبرة جماعيّة

تُحاط بسورٍ طينيّ يُغلق ببابٍ من الخشب الأبيض، نكاية في خصومه كي لا يُمثّلوا بجثث القتلى.

عندما جيء بتوابيت أهله، تمسّك بقدم أحدهم طالباً السماح له بفتح التوابيت لِيُقبّل أباه قُبلة الوداع الأخير، فرفض الجنود رفضاً قاطعاً، حيث دُفنوا بتوابيتهم، فالتهم الحزن بصدره شهوراً طويلة.

كان وقتها يعمل حمّالاً في سوق مينار، ومُرغَماً من الجنود على جَرّ العربات التي تنقل الأسلحة إلى بوّابات القصر كالحمار، فأمضى حياته في هذه المهنة مُقتنعاً بعمق العمل الذي يتقنه كالحمار الذي يطوفه في جرّ العربة الخشبيّة.

وعندما فكّر بأن يقترن بسُلافة، رأى حجم العائق الكبير في تحقيق هذا الحلم الجميل، فكيف لسُلافة أن تقبل برجلٍ مبتور الأهل، زيادة على عمله حمّالاً يشتغل أيضاً بجرّ العربات كالحمير، فأيّ هوىً يندفع بروحه الصبّة دون أن يوصله بغيته.

خنقه اليأس من قُربها، فاكتفى بلَذَّة أطيافها والتلصُّصُ عليها كُلَّما سنحت له الفرصة أن يتلصّصَ عليها، رأى أن ذلك أهون عليه من أن يسمع إجابة الرفض المؤلمة من خَمرِ شفتيها.

***

وحين ضؤل القمر وسُمع أنين الليل، كان النوم قد خاط عينيه بتمكّن لتجد الأحلام طريقها إلى إفزاعه، رأى أنه يُسحَبُ من رجلين

شديدي العضلات، أياديهما السمراء تقبض على ذراعيه كالحديد، رأى خواتم الفضَّة وهي تلمع في خنصريهما حول كوعيه، يطنُّ في سمعه صوت سيفٍ يُطرق بمرزبَّة سوداء تساويه بالنار، أصواتٌ من الرجال والنساء تشتمه وتزدريه، لتزاح من أمامه جُثَّة قد اقتُلِع رأسها، ارتعدت عظامه وهو يجاهد قبضة الرجلين، فجيء به إلى أن صارت رائحة الدم تفوح من عنق الجثَّة.

وحين رأى الجسد المزاح جانباً، أطلق شهقة أسكتتها يد الرجل الذي كان يطرق السيف بالنار، إذا بها جثَّة سُلافة تلك المرأة التي كان يتآمر مع الظلام في اقتفائها، أوشكت روحه على أن تُنتزع مما رآه، صاح في وجه الرجل الذي يلوح بسيف النار حول عينيه:

ـ أتوسَّلُ إليك لا تقتلني.

فَنَظَرَ إليه بعينين ملؤهما نيّة القتل، فأحسَّ بلظى النار يكوي جلد رقبته الرقيق، فصَحَا من نومه، وهو يُهادن الشهقات التي تتلاحق في صدره، كان يشهق بفمٍ منفتحٍ وأنفٍ يتيقّن من رائحة الدم التي طمست أنفاسه في الحلم.

عَرَقُ الخوف من هول ما حَلَم به ينضح من جسمه برائحة مالحة، أرخى رأسه لتقع عينه على بُقعِ العرق التي تقاطرت من نسمات جلده، فابتسم ابتسامة جنونيّة كمن خُلط عقله.

أدار بصره إلى الشبَّاك الطينيّ ليطمئن إلى أنّه فعلاً كان يحلم فرأى القمر نصف هلال، نَهَضَ من فراشه وتأمَّل قوسه، لا شيء غير الظُّلمة ونباح الكلاب، وكأنّه لم يصدّق.

رَمَى بجثَّته المرتعدة جانب فراشه مُتأمِّلاً هذا الملح الذي يبوح بقُبح ما حَلَم به، وَضَعَ يده الباردة على فراشه، قَبَضَ طرفه ثم تركه، وَسْوَسَت له نفسه بأن يشمَّ هذا الملح، استنشق بقوَّة باطن كفِّه فكانت رائحتها هي نفسها رائحة الدم التي شمَّها في الحلم، تلك الرائحة التي قفزت من عنق الجُثَّة، فسأل نفسه:

ـ أيُّ معنىً هذا؟!

***

عند الصباح، أرسلت الشمس موكب النور إلى نافذته ذات الصدور المحيطة ببروازها الطينيّ فشَعَرَ بحرارة النور وهي تخطو فوق أجفانه الحنطيّة برفق، لم يشأ أن يرفعهما حتّى لا تؤذي عينيه، انزاح عن جنبه الأيسر معطياً الشمس ظهره، ليسلم بصره إلى جدران غرفةٍ محكمةٍ باليأس والعشق معاً، العشق الذي أدار عقله ليبدأ معه مسيرة الأحلام المسعورة بالكوابيس.

اعتدل في جلسته ونَقَل جسمه على ركبتيه حتّى استقام لكن ليس كاستقامته كل صباح، فهذا الصباح ليس ككلّ الصباحات التي انزلقت من قمَّة شبابه وقُوّته، هذا الصباح شاهد استقامة جسمه مدقوقةً من

رقبته، عَرَفَ هذا من ظلّه الذي أهداه له جداره بالتآمر مع شمس ذلك اليوم، استدار ناحية الشمس التي تتكئ على شبّاكه ثمّ عَبَس لها واقترب منها مُديراً بصره في الطريق الذي يعبره أنين وغناء المارّين.

تَحَرَّك بعدها نحو شلالٍ صغيرٍ يقع في غارٍ يكمن داخل جبلٍ يشرف على المدينة، رفع رأسه متأمّلاً انهمار الماء من أعلى، ثمّ تجرَّد من ثيابه وَرَمَى بها على صخرة اشتهرت بصمودها أمام الوبل والعواصف التي ألبستها الألوان والأشكال.

وَقَفَ تحت الماء وهو ينهمر ببرودته عليه، وكأنَّه يهمس لبرودته أن اكشطي حرارة الحلم عن نسمات جلدي.

ماءٌ عذبٌ مُحمَّلٌ ببرودة قريبة من الشديدة يصطدم بجلدٍ قرضته حرارة الملح والهَلَع المتموِّجة وهي تجرف عَرَقَ وجهه.

خَرَجَ من تحت الشلال جسداً سُلخ عنه الخوف والتعب، ليقف فوق صخرة مكعَّبةٍ يراقب قطرات الماء وهي تغادر جلده وأطرافه .. عَضَّ شفته السفلى وانحدر من الصخرة المكعّبةِ إلى الصخرة التي أودعها ثيابه وربكتها.

أقبل على المدينة بجلدٍ جديدٍ انتزَعَت منه برودة الشلال بقايا آثار حلم البارحة، وَجَرَت على حنطيّته رطوبة الحياة وخَدَرُها، فانخرط في الأعمال اليوميّة كمن لم ترهقه قِلَّة نوم وراحة.

صَبَغَت الظلمة سماء المدينة بصبغتها السوداء، وعاد إلى منزله واستوى على فراشه القماش المعبَّأ بالقش يراقب زخارف الطين التي رُسِمت على جدار غرفته، يأتيه يقين الحلم ويكذّبه في كُلِّ لحظة ينتظر فيها سحر النوم ليأخذه، ضعفت قوَّة أجفانه أمام النعاس فالتقت رطوبة أهدابه بعضها ببعض لينزلق في النوم دون شعور.

ضربت الأحلام بميسمها جنب ليلته تلك لتتحرَّك بانتظام إليه، فرأى نفسه ممدَّداً على لوح من أمشاط الحديد تَتَسمّر في وجهه نظرات الجنود الواقفين على رأسه، وصوت امرأة ينطلق من بينهم:

ـ جَرِّدوه من ثيابه.

فتناوشته الأكفُّ الغليظة تنزع عنه ثيابه وتمزِّقها لتتجلّى بشرته الحنطيّة للأعين المعاقبة، عُرِيٌّ ينتظر من يخبئ سوءته على أقلِّ تقدير.

أحسَّ بجسمٍ يقف على رأسه، فالتفت بعينه إلى أعلى ليشاهد وجهاً مقلوباً ذا عينين كحيلتين تتأملان في لوح تملأ صفحته إبرٌ يقطر منها السمّ قُرِّبت رؤوسها منه، ليسأل بخوف:

ـ لماذا تحملين هذا اللوح المدجَّج بإبر السُّم؟!

كان سكوتها أقسى إخافة من إجابةٍ ينتظرها تُعتَقُ من بين شفتيها، اقترب رجلان أسودان عن يمينه وعن يساره فأوسطا اللوح بينهما جاعلين رؤوس الإبر إلى أسفل، حاول رفع رأسه الحليق والاتكاء على كوعيه الأسودين، لكن أيدي الرجال الشديدة كانت أسبق منه، حيث

ثبّتت يديه وذراعيه، فلم يبق إلّا بصره الباكي يراقب رؤوس الإبر التي يقطر منها السّم، لتهوي يدا الرجلان باللوح على أوسط جسمه.

صَحَا من نومه مُطلقاً صرخةً سوداء أضجرت جِنَّ المدينة وشياطينها، واضعاً كفّه الغارقة في عَرَقها على صوت قلبه الراكض تحت أضلاعه، ليلتفت إلى كِسر العَرَق التي جفّفها نسيم الليل الداخل من شباكه الطينيّ، فتَّتها بأنامله ليحليها إلى طحينٍ أبيض، بلّل ظهر يديه بعَرَق رقبته المنزلق إلى نحره ليمسحها على طرف فراشه، فتذكّر كاهنة المعبد خندريس، فابتسم ابتسامة خبيثة، ليُقرّر أن يدلف إليها في الغد ليشكو أحلامه إليها، وبات يراقب في الشبّاك قوس القمر البعيد.

الفصل الثَّاني:

عَرَبَةُ كهَانَةٍ تَجُرُّها الرّيح

معبدُ الكاهنة الحدباء خندريس، عبارة عن كهفٍ ضيّقٍ ينفذ مدخله بطريقة مُقوّسة، شُدّ أوسطه ببابٍ خشبيّ عُلّقت عليه جُمجُمتان بشريَّتان ومن خلفه تجلس خندريس حول إطارٍ مربَّع من الحجر الأسود تُرِسَ بالجمر، أمضى وقتاً وألسنة اللهب تلعقه كُلَّ ظهيرة.

تفترش جلد حمارٍ أدهم دُبغ بمهنيّة عالية، جعلت ذيله نصف الأسود زينة لجدارها الصخريّ، تَعَوّدَت حين لا يجيئها بشرٌ ما أن تقوم بمشطٍ خشبيّ رُسمت على جوانبه الصفراء خطوط سوداء تتقاطع عند مقبضه الأسود البيضويّ ، تمشُطُ جديلتها البيضاء التي تلمع على طولها شعرات شديدة السواد، جديلةٌ تبدأ من فوق جبهة طويلة تبرز على صفحتها تجاعيد مستقيمة تزداد بُروزاً حين ترفع حاجبها الكثيف

أكثر من أي امرأة طاعنة في العمر، فطول أهدابها مخيف بعكس ما يعرفه الناس من جمال الأهداب الطويلة، تضع كحلاً مُعتماً يدور حول الجفنين من الداخل ويمتدّ خطوطاً عند العدستين.

حين تتكلّم يفطن سامعها إلى تَحرُّك تجعُّدات وجهها بطريقة لم تُشاهد على بشر قبلها، تتسابق على ظهر كفِّها عروق يتنازعها اللونان الأخضر والأزرق، لُحِفت بجلدٍ جافٍّ منقّط بالوشم والنمش معاً، تمسك كفّها بعصاً بطول ذراع الصبي لها رأس معكوف بعض الشيء دُقَّت عليه رؤوس صغيرة من الذهب، وشُقَّ في أسفلها مَقرٌّ لماسة صغيرة يبدو من أسفل العصا أنها منزوعة.

تُحرّك بعجزها رؤوس الجمر الصغيرة وتُفتِّتها وتُكَسِّر بعضها، وتنفخ في الرماد المكوّم جانباً وتنادي بصوت خفيض:

ـ يا ظلّهم، يا ظلّهم، لِنَلِج البلاد عليهمُ.

لتَفُكّ بعدها ضمّة شفتيها الغليظتين عن نفخ الهواء في الرماد، ثمّ تُمرّر لسانها الأسود لترطّب شفتيها بلعابها الأبيض.

تستريح يدها في حضنها، وتارة على فخذها، ذات ذراع رُصَّت فيه قطع أساور ذهبيّة محفورة بحفر لافتة، تستر نحولها بردائها الأحمر المنقوط بالدوائر الصفراء، لها رقبة نحيلة قصيرة لدرجة أنها شبه غائصة بين كتفيها، تطلُّ أوردتها عن يمين ويسار حنجرتها، حيث تُلاحظ أكثر حين تبلع ريقها.

***

طُرِقَ باب المعبد طرقتين لطيفتين، فأدارت رأسها الغارق بين كتفيها ونادت:

ـ أُدخل.

أتى صفير مفاصل الباب حاملاً معه فتىً في منتصف العقد الثالث من العمر، متوسط امتلاء الجسم، حليق الرأس، زغب أشقرُ يعتلي شفته الصغيرة، تبرز حبّة خالٍ شديدة السواد تحت فكّه الأيسر، به حدبةٌ واضحة بعض الشيء، حاجباه أشقران طويلان، عيناه واسعتان، يلبس ثوباً أزرقَ رُقِع أسفله برقعة صفراء صغيرة، عيناه بدا تحتهما لون التعب وهما تنظران بربكةٍ وَحَذَر ليسألها بتأتأة:

ـ أأنتِ الكاهنة؟

ابتسمت باستهزاء ليقع نظره على أسنانها المطليّة بالصبغة، ولثَة اغمقَّ لونها الأحمر، فهاله منظرها، التصق لسانه في أعلى حلقه فأحسّ بفداحة خَرَسِهِ المخاتل.

نظرت إليه بفرح وتَبِعت نظراتها الفرِحة بترحيب ملتهب:

ـ أهلاً بك، اقترب اقترب.

تقدّم إلى حيث أشارت له، خطوات تلمس الأرض باتّزان حتّى ساوى المربّع الحجري الأسود، ليجلس على ركبتيه باسطاً كفّيه على فخذيه، مطأطئاً رأسه وعيناه تدوران في المكان.

سألته بحماس:

- مِمَّ تشتكي؟

ثمّ دحرجت إليه كُرَة قماشيّة لاحقتها عيناه حتّى اصطدمت بركبته اليمنى مرتدّةً إلى مربع الأحجار، لتقف في المنتصف وتقف عيناه عن ملاحقتها فرفع رأسه سائلاً:

- ما هذه؟

ضحكت بخبث وأجابت:

- ألا تعرف الكُرَة؟ ألم ترَ كُرةً في حياتك؟

فقال بصوت اختلط بريقه:

- بلى بلى رأيت الكثير.

دفنت ربع عصاها بين كِسَر الجمر وطلبت منه حمل الكُرَة:

- اقبض عليها بكفّك اليسرى ثمّ حدّثني عمّا يُضيّق حياتك ويُعكِّرُ صَفوها.

التقطها بقوة وَهَزّ رأسه بمعنى: إنني فعلت.

نظرت إلى الجمر وطلبت منه أن يخبرها عن شكواه، فراحت الظهيرة تسلخ فروتها الحارّة حتّى طرقت ساعة العصر مدخل الكهف، ليخرج واضعاً ذراعه اليمنى على عينه ليقيها لسع إبر الشمس، تاركاً حقائب معاناته وشكواه تحت تصرّف الكاهنة وَمَردتها.

***

وحين تجرّدت السماء من كُلّ ضوء واكتست بجديلة طويلة كثيفة من الليل، وَصَل إلى منزله ودفن جُثَّته في بطائنه الملوَّنة بالغبار، تمدّد كما يريد واسترخى، ثم أدخل يده في جيبه وأخرج صرّة الدواء الصغيرة التي أعطتها له، ليحلّ عقدتها وَيَدهَنَ بطحينها الممزوج بالماء أجفانه، فدخل من باب غرفته شيخ النعاس ووضع كفّه البيضاء ذات العروق الزرقاء على أعلى جبهته، وسحبها إلى ذقنه مُطفئاً شعوره بالصحو.

فرأى حُلُماً شديد الوضوح: شَعَرَ بنفسه جنازة محمولة على نعشٍ خشبيّ يتَّسع لميت ونصف الميت، يحمله جمعٌ من المنافقين والمرائين، أحسَّ بموته فعلاً، فأصوات المشيّعين تتبعه بألفاظ وَجُمَل لم يسمعها حين كان حيّاً، كانت ممزوجة باللمز والهمز على جنازته اليابسة.

أنزلوا نعشه بجانب القبر فتبرّعت يد كهلٍ طويلة الأظافر بإزاحة الغطاء عنه ليفرده بكفنه الأبيض، شَعَرَ بحرارة نَفَسِ فَمِ أحدهم وهو يحدِّثه قريباً من عينه اليمنى:

ـ ما أروعك وأنت مُسجّى عند قبرك.

فابتعدت أنفاسه المخلوطة برائحة كريهة، لتتداعى إليه أصوات المشيّعين:

ـ وَسِّعوا اللحد.

وَصوتُ أحدهم:

ـ ألا يجلب لنا أحدكم اللبن من هناك.

وصوت أحدهم من هناك:

ـ قرّبوه قرّبوه.

شَعَرَ بالأكف وهي تنزلق من تحت رقبته وظهره ومفاصل ركبتيه، ليوصلوه إلى أكفٍّ استقبلته بالطريقة نفسها التي حُمِل بها من فوق نعشه ليهمس له أحد حامليه وهو يُوسِّده في قبره، حيث شتمه بصوت خفيض:

ـ ملعونٌ في الدنيا وملعونٌ في الآخرة.

أصوات المشيعين تتداخل وتتمازج في أسئلتها ولغطها وبكاء بعضها، حتّى اتّحدت في صوت جماعيٍّ واحد:

ـ أهيلوا عليه التراب، أهيلوا عليه التراب، واطلبوا الأجر من ربكم.

فهاجمته رائحة التراب والطين قبل أن يضغط جثّته، فَشَعَر بتسلُّل التراب من ثقوب اللبن التي لم تُحكم من بعض الجهات.

صحا من نومه رافعاً أنفه وفاغراً فمه في الهواء، وكأنّه يريد شرب الهواء لا استنشاقه.

شهقة حذو الشهقة، كلُّ واحدةٍ منهنَّ مثقلة برائحة الطين والتراب، أصوات المشيّعين تشتدُّ في سمعه، وجسمه يهتزُّ ببطء وهو يحاول فتح عينيه الصغيرتين.

الفصل الثالث:

بِشارةٌ يَجلبها المَرَدة

في ليلةٍ شُطِرَ قمرها تجسّد اليأس في روح سُلافة كغولٍ ضخم، يتدحرج السؤال على رأسه دائراً على قلبها: كيف لم يَلفت سحرها الرجال؟! فامرأة مثلها أمضت زراعة الخيبة على رؤوس النساء في كُلِّ محفل، حيث لا تملك امرأة أن تراقصها أمام الجمع النسائي الكبير، الذي يَتَحلّق حول الأرض التي تتسيّدها قدما سُلافة التي تحمل جسمها المنحوت الراقص بخفّة.

أشارت لها إحدى صاحباتها بأن تعرض أمرها على الكاهنة خندريس، مستشهدةً بأمثلةٍ ليست بالكثيرة عن نساء مينار اللاتي انفكّت عُقدهُنَّ النفسيَّة والحياتيّة، حيث قَدَّمنَ للكاهنة بعدها القرابين الكبيرة.

دَلَفت إليها في صباح باكر، لينهال الاندهاش على وجه الكاهنة وهي تسألها:

ـ سُلافة؟! ما الذي أتى بكِ؟!

رأت جسماً كأنَّه مُتشكّل من اللهب، طولٌ متناسق مع أعضائها المنحوتة، جديلة شديدة الشُّقرة تلامس أطرافها عجيزتها، ونهدان صغيران لافتان، وبطن طواه الضمور وأركزه جمال الخِلْقة، لها وجهٌ فاتن الذقن، وعينان واسعتان محاطتان بكحلٍ كأنَّه مجلوب من أحلك ليل، لها خدَّان بارقان، يحيط بمفصل قدميها خلخالان ذهبيّان لامعان، تتصلان بساقين دقيقتين بيضاوين مغريتين، قدمها وأمشاط أصابعها كأنها لسان أفعى.

اقتعدت مكاناً شبه قريب منها، شابكةً أصابعها وهي تشكو لها صُدود رجال مينار عنها، وتمسح بكفّها على جيدها وشعرها وذراعيها قائلةً:

ـ مع أن الجَمَال يَقطُرُ من كُلِّ بُقعةٍ في جسمي.

أخذت الكاهنة تعبث برؤوس الجمر بعجز عصاها، وهي تستمع لشكواها وتهزّ لها رأسها علامة على حسن الاستماع، حيث أكملت سُلافة حديثها:

ـ ناهيكِ يا سيِّدتي أنني أميرة المحافل، فلا ينتهي حفل يُقام في ليالي مينار إلّا وأكون أميرته وفتنته التي تتجاذبها الألسن والأفواه، ورغم ذلك أبى الحظ اللعين أن ينهض.

قَبَضَت الكاهنة قبضة من الرماد وَرَفَعتها في وجهها وهي تقول صارّةً إحدى عينيها:

ـ تبّاً لقلوبكم يا رجال مينار، وسحقاً لأفئدتكم التي لم تعشق، أوردةٌ مثلكِ لا يُشمُّ عبيرها، هذا القوام البهيّ الأنثوي، يستحق أن يُشترى بسنوات العمر.

امتقع وجه سُلافة فقَبَضت خندريس مرّة ثانية على الرماد قائلة:

ـ حتّى ينفكَّ عوقك يا ابنتي يقول ماردهم لي: عليها أن تأخذ قدرين مغليين وتضعهما غير بعيدٍ عن مينار.

اعتدلت سُلافة في جلستها وهي تقرأ البُشرى من وجه خندريس:

ـ حسناً حسناً ثم ماذا؟

وعندما انتهت قبضة الرماد من التسرُّبِ أكملت لها:

ـ ويكون ذلك في ليلةٍ مُظلمة بالكاد يُرى قمرها، حيث إنَّ الضوء وإن كان شحيحاً يُفسد مقاصد الحلول التي تُصنع لكِ في الخفاء.

عَبَسَ وجه سُلافة وسألت بيأس:

ـ لكني أخشى الليالي الحالكة، وتصيبني الوحشة منها، ألا تطلبين منهم غير ذلك؟ توقيتهم هذا صعبٌ يا سيدتي.

انتفضت أعضاء الكاهنة، وشدّت جديلتها مُغمضة أجفانها ثم نفثت في الرماد وصرخت:

ـ نعم، نعم، علمنا ما يكون، لا أشكُّ في أياديكم المُصلحة لكل كسْرٍ بشريّ.

تكسّرت الجسارة في عظام سُلافة، والتحفها الخوف حتّى سألتها بلغةٍ هادئةٍ:

ـ هل رفضوا طلبي؟

رَفَعَت الكاهنة أجفانها ناظرة إليها بعين مُبشِّرة:

ـ جعلوا اختيار الليلة المناسبة لك أنتِ، فأنتِ أعلم بالطقس الذي تجيدين فيه إرضاءهم، المهم هو إتقان العمل الذي سيكلّفونكِ به.

ـ حسناً وبعد وضع القدرين المغليين ماذا أفعل؟

دَفَعَت بالكُرة القماشيّة إليها قائلة:

ـ يقولون عليكِ إحضار ثلاث من الأفاعي المعقولة الطول.

لَطَمت سُلافة فمها برؤوس أصابعها مُندهشة:

ـ أفاعٍ؟!

ـ نعم أفاعٍ لكنها ميتة، تقطّعينها في القدرين وتتركينها يوماً بأكمله، وتعودين في الليلة التالية لأخذها ودَسِّها في طعام الرجال في المحفل القريب الذي سيكون بعد أيام.

ـ وبعد؟!

ـ وبعدها ستجدين الرجال يقفون كخط النمل على قارعة طريقك، كلهم يتسابقون بأجزل المهور لتقبلي بأحدهم مملوكاً لا زوجاً.

نَهَضت سُلافة وَبَسَمَات الأمل تتعارك على مبسمها، لتضع حفنة من النقود الذهبيّة في يد الكاهنة وتنصرف خارجة وعينا الكاهنة تتفحَّصان النقود.

الفصل الرابع:

بعضُ أُمنياتٍ تَتَداعى بِبطء

في اليوم التالي قَرأت الشمس خُطا علّال حتى أدركته أصابع الليل، ضوء كسيح وظلٌّ امرأة يتَخَطَّى بحَذَر، مشى حافياً على رؤوس الأصابع واختبأ خلف جذعٍ عريض وأحكم بصره إليها بدقَّة، رآها تحمل قِدراً يغلي لدرجة أن دخانه يطبع ظلَّه معها وهي تروح وتعود، خرجت أمامه ليشاهد كفَّيها وهما تقبضان عليه من فوق خرقتين سميكتين كي لا تؤذيهما حرارة أطرافه، فإذا هي سُلافة نفسها، هي التي لاحقتها عيناه في ساحة الرقص التي تتوسّط النساء.

التوى على الجذع نصف دائرة كي لا تراه، أبصرها تضع القِدر على الأرض، تلبس هذه المرّة قميصاً أسودَ مُرقَّطاً باللون الأحمر وَتَلُفُّ رأسها بخرقة بيضاء ذات حدود شبه سوداء كما نَقَلَ له بصره الضعيف، أطلق نَفَساً سريعاً سار بجانبه صوت صدره لترفع رأسها

وتلفَّت بحذرٍ في المكان، فشدَّ على نفسه كي لا يُخرج صوتاً يُنبِّه إلى وجوده فيفتضح أمره.
رآها تضع قِدراً آخر لكنَّه لا يغلي كالأول، رفعت غطاء القدر الثاني وأخرجت ثلاثة ثعابين يقارب طول الواحد منها المترين أو أقلَّ قليلاً، واستلّت سكيناً ذات طول لا يَتَعَدَّى العشرين سنتميتراً ليصل إلى عينيه الصغيرتين لمعان نصلها ذي الحِدَّة الدقيقة.
أتقنت تقطيع الأفاعي إلى قطعٍ صغيرة داخل القدر الذي يتصاعد دخان غليانه، فشدَّة يديها وهي تُقطّعها تسحب استغرابه واستفهامات قلبه.
تَحَرَّك من بين الحشائش القريبة هيكل سبعٍ نَفَر من تحت أجفانه سعاره الشديد، وَتَدَلَّى مع لعابه جوعه الطويل، حَدّق في علّال الملتصق بجذع الشجرة وهو يراقب المرأة، اقترب بهدوء نحوه لكن حاسَّة الشمِّ عند علّال التقطت رائحة اللعاب الكريهة وهي تخطُّ نحوه نيَّتها وقصدها.
أطبقت سُلافة أحد القدرين بقوَّة، ليهجم السبع لحظتها عليه، أدرك صوت قفزته ليخرج هارباً تجاه سُلافة ويقفز القدرين ليسقط فوق الحشائش على حجرٍ جَرَح ذراعه الأيمن وصراخ سُلافة يتبع سمعه.
سَمِعَ صوت افتراسٍ مهيب، فرفع رأسه من بين الحشائش ليظهر له مشهد السبع الجائع وهو يجترُّ لحم ظهر سُلافة حتى ينقطع بين

فكَّيـه، رأى أنيابـه الصـفراء وهـي تَـمزَعُ مـن كـلِ مكـان مـن جسـدها قطعتين وثلاثاً، تحامل على نفسه وَسَحَب خنجراً يمانيّاً لا يقِلُّ طول نصله عـن الـذراع، مـن جرابٍ أسودَ ثبّتـه بـحزامٍ عـريض حـول سـاقهِ اليمنى، راقب ضوء القمر وهو يمشط جانب الخنجر وابتسم بانتصار لـيرى السـبع يغمـق فكَّيـه في بطـن الـجثّة وَيَـحُدّه بعينيـه الـمسعورتين كالقائل له: دورك التالي.

رفع السبع رأسه للسماء وأطلق عواء طويلاً، وَقَفَ علّال وشدّ على مقبض الخنجر بكلّ قُوَّة تبقَّت في أعصاب كفّه، وحين انقضَّ عليه قَذَفَ بالخنجر فَمَرَق كالسهم لينفذ في حنجرته، وَصَوتُ دقّة المقبض يُبشِّر سمعه بأنَّه حقَّق بُغيته.

أرخى رأسه بين كتفيه وأسدل يديه المعروقتين على فخذيه، وَزَفَر زفرةً أتى معها الصوت نفسه الذي كاد يفضحه حين كان يراقب سُلافة.

استجمع قواه، ورفع قميصه لتُصدم عيناه بجروح كحُمرة اللظى دُقَّت خطوطها على صفحة بطنه العاري، وَقَف فوق جثّتها الممزَّقة فلم يظفر إلا بقميصها الممزّق أيضاً، حيث عاد ليقف خلف الجذع يضمّه إليه ويسحُّ دمعه على رقعته، وعاد يتعثّر في الطريق.

وفي الصباح استيقظت المدينة على رائحة العزاء، حيث شَيّعت جثمان سُلافة الممزّق، وهو يمشي خلف المشيعين وقد اصطبغ وجهه

بحمرةٍ شديدة من البكاء، كانت شمس يومه قد سُيّجت بسياج العتمة، ليدرك أنّه لا يعيش إلا حياةً لاهثة.

***

أنفق من عمره خمسة أعوام يتذكّرها بحزن وشوق معاً، إلى أن أتت المرّة التي تصالح فيها مع ريح المساء التي دغدغت آباط العصر حتى سقط في المغيب، نفض رداءه المرقّع ومسح عرق جبهته، خيالها يلاحقه حتّى وهو في الفلاة، فكلّما أدار وجهه عنه خرج له من الجهة الأخرى، أخذ يعدو متجرِّداً من تركيزه في الركض حتّى أحسَّت أقدامه ببرودة الطين الذي وقع فيه، لتتداعى إلى باله فكرة يدفعها الهيام الحار، وحين أوصد المغيب بابه عن المدينة بدأ ينحت تمثالها على خيالها الواقف أمامه: قطعة قطعة، عضواً عضواً.

وما أن ارتفع القمر في الظلمات حتّى أنهى صناعة تمثالها فوق صخرة مكعَّبة.

شَبك أصابعه من خلفه وراح يذرع الطين ذهاباً وإياباً، ارتفع القمر حتّى اصطدم ضوؤه بالتمثال، تأمّله مليّاً وقال لنفسه:

ـ قمران لا يتَّفقِان.

عَضَّ شفته السفلى غيرةً على تمثالها من ملامسة ضوء القمر فانصرف مسرعاً تجاه المقبرة ودَلَف إليها راكضاً مثل ما انطلق من البقعة الطينيّة، وعينه تصوّب قبرها الذي كانت ترقد عليه أفعى رمليّة،

حيث فزعت هاربة حين وصلها وقع أقدامه الراكضة، لينقضَّ على القبر آخذاً في حفره، والدمع يتجمَّع تحت أجفانه.

أمضى الليل كلَّه يحفر على نباح الكلاب وازدراء البومة الضخمة الواقفة على سور المقبرة الطينيّ، غَاصَ حافراً القبر إلى أن كَسَرَت أظافره صلابة اللبن المرصوص على اللحد، توقّف متألماً، امتصَّ دم أنامله، وكأنَّه طفل حُرم لذة حلمة أمه المدرّة للحليب.

ارتفع القمر أكثر في الظلمات وأضاء له حدود اللبن واللحد، فالتفت إليه في سمائه وشتمه في نفسه، ثمّ جاهد اللبن حتّى استطاع اقتلاعه، فلم يجد في لحدها غير جمجمتها المشجوجة والتي أخذت لون الطين ورائحته.

وبجانب جمجمتها لمس براحتيه تراب اللحد ضاغطاً بقوَّة ثمّ قرَّبها إلى أنفه فسافرت صورتها في أعماقه، ليرفع بَصَرَهُ في مدينته مينار ليراها تتَدَثّرُ في رداء الوحشة، أرضاً للوحشة، فَشَعَر بالحُرقة لفوات مسرّاته، ليمضي ليلته دافناً رأسه بين ركبتيه.

الفصل الخامس:

عشقٌ يتطاولُ كالعمر البعيد

تضخّم النور في مسار الفجر، وتحت غصنٍ شديد الاعوجاج يقطر من رأسه زيت شفّاف اللون، ثقيل اللزوجة، تجلس الكاهنة خندريس القرفصاء وهي تدفع أناملها في رأس عاشقها القتيل وتُلاحق قمل شعره يميناً ويساراً.

تنحني أكثر عليه وتزجّ بالقمل في الناحيتين، تنحني أكثر حتى تتكوّر لتنزّ رائحة كريهة من مسامات جلدها الواسعة وتظهر في هيئة شمطاء ضاربة في صميم الكِبَر، تتلَوّى على الرمل بعد أن أزاحت رأس العاشق تحت الغصن، مساوية رداءها الأسود الرثّ، ومتأمّلة تجاعيد كفّيها الخضراء وجلدها المريب.

أطلّت في ماء النهر، وابتسمت عن شفتين سوداوين ولثّة داكنة الزرقة بلا أسنان، وعينين صغيرتين ذواتي أجفان متهدّمة، على خدين

بـجلدين متقـرحين، اسـتدار حـول سـاقيها كلـب أدهـم قصـير القـوائم مقطوع الذيل، فوق فكّه الأعلى شجّة بارزة، نادته:

ـ شميم.

فَعَلا نباحه حتّى أسكتته بباطن كفّها الصفراء، وانـحدرت نـحو الـمدينة تـدفع عربـة خشبيّة على عجلتـين مطّاطيتين، وكلبهـا يقفـز مـن أمامهـا ومن خلفها ويهرول.

***

التهبت حرارة الصباح فوق رؤوس السائرين في الأزقة والـجالسين أمـام الـدكاكين ذات الأبـواب الصـدئة، وأفـواه الباعـة تنـادي الـمشترين والـمارقين:

ـ الأجود عندنا.

ـ لا مثيل لـما لدينا.

تمرّ العربة يتقدّمها كلبها شميم لتقف عند دكّان عطّارٍ منشغلٍ بتقليب أعشابٍ مطحونة في كيسٍ من الخيوط البنيّة الخشنة وهو ينادي:

ـ دواء داء العشق لدينا، دواء داء العشق لدينا.

اتسع منخرا العجوز أكثر ممّا هما واسعان:

ـ أللعشق دواء؟!

ـ لكل داء دواء والعشق مهنتنا أن ننتج دواءه.

وأتبع بابتسامة هازئة من شفةٍ مشرومةٍ فوق ذقنٍ صغيرٍ تَنطُّ من أيسره شامة ثقيلة.

أطلقت مدير العربة من يدها واقتربت بخطوات عاجزة:

ـ وهل برؤ أحد أُعطي هذه الأعشاب؟!

ـ بالتأكيد.

ـ ....

والتفت يميناً ويساراً:

ـ وهُم كُثُر.

ـ لكن عشقي تطاول كتطاول سنواتي البعيدات حتّى مات الكثير ولم أبرأ!

غمس يده في الكيس الأوسط من الأكياس الموقوفة بين يديه حتّى غاصت ربع ذراعه خلف يده، ورفع إليها حفنة كبيرة مطحونة:

ـ خذي هذه سترين بنفسك.

نظرت إلى وجهه ثمّ إلى الحفنة مرّات سريعة:

ـ أعد الحفنة إلى كيسك، فلست مؤمنةً البتّة بشفاءٍ من العشق.

ـ ....

ـ العشق الذي فتّت قلوب الجبابرة والفرسان وألقى الأبطال من على ظهور الخيول.

نَظَرَت في كلبها وهو يشمّ الأكياس ويدور حولها:

ـ لنذهب يا شميم.

***

وعلى مرتفع صخريّ على شكل قوس طويلة، تعبره خندريس وكأنّها تمشي على أرض الشوك، دافعة عربتها الصغيرة وكلبها شميم يقفز ويهرول من خلفها وأمامها، وهي تغنّي بصوت مشروخ:

يموت العشّاق ولا عزاء للعشق فيهم

يموت العشّاق ولا عزاء للعشق فيهم.

تجاوزت المرتفع الصخري مُنغمسة في غِشاء ظلامٍ فتّته ضوء القمر، فلا غير صمت الصحراء الفاصلة بين مدينة مينار والنهر، يُخدرها لتراودها فكرة الانقلاب في هيئة حيوان بريّ، لكن هذه الفكرة لم تواصل إصرارها حيث انزلقت إلى سمعها نداءات رجال يتقدّمون قافلة من الجمال البيضاء، المزيّنة بجيوبٍ ذات نقوش وألوان من الخيوط السميكة:

ـ لنسترحْ هناك حتّى تطلّ الشمس.

قال أحدهم وكأنّه أميرهم فالتفّت القافلة نصف دائرة بعد أن تململت الجمال واختارت أن تبرك فوق برودة الرمل الناعم، أنزلوا صاحبهم المريض، وأضجعوه تحت صخرة مُكعّبة، بعد أن أوقدوا نارهم وَصَفّوا صيدهم فوقها، مُتحلّقين حولها ونكاتهم وحكاياتهم الماجنة تعلو فوق صمت الصحراء، وصوت أحدهم مُنادياً:

ـ رشيد، رشيد.

انفتحت نافذة الـماضي أمامهـا، فرأت جثمانه الـمسجّى عند بابـها، وأخواتـه يـنحن ويهرشـن وجـوههن، فينطلـق دمعهـا دون بكـاء، مـُجرياً كحلهـا العتيـق مـن جفنيهـا الأحـمرين، تلمـع عيناهـا وهـي تتـذكّر وتسـترجع تلك اللحظة الألـم، وتـمسح بكمّهـا الطويـل دمعة انزلقت فـوق خـدّها، وانـحصر بصرها في ثقـب الـماضي: حـين وَقَفَـت على جثمانه الـمغطّى بكفنٍ أصفرَ خشن الملمس، تراقب حرقة أخواته وهنّ يـدلقنها فـوق رأسـه وعنـد قدميـه، واسـمه يـخرج مـن أفـواههنّ متقطّع الأحرف:

ـ ر شـ يـ د، ر شـ يـ د.

تـحاول بـجهدٍ قصيّ أن تنطقه:

ـ ر رر شـ شـ .. يـ يـ د.

يَبِس لسانـها مـن ثقـل الـحزن عليه، تـمسح دمعها ومـاء أنفها بظاهر يدها الـمحنّاة قبل ليلتين من حنّاء جلبه لـها من مدينة الـميس جين عاد ظامئاً لعناقها، لـم تفلح الـمحاولات في إقناعه بأن يبقى أسبوعاً لا يخرج من المنزل حتى تروي نـهمها منه بعد الغياب الطويل.

تَذْكُرُ حين نَهَضَ وتمسّكت به:

ـ لا تذهب.

يسألـها مُداعباً:

ـ لِمَ؟!

ـ حَلَمت البارحة أنك تغيب في قاعٍ سحيق.

ـ........

ـ لتبقَ اليوم.

مَسَحَ على خدّها برؤوس أصابعه:

ـ لن أتأخر، سأعود يحملني الشوق.

لكنه عاد يحمله نعشٌ حَمَلَ قبله المئات من رجال ونساء المدينة، تتذكّر الآن صوته والرجال الثمانية الذين التقطوه بنعشه ومضوا به مشيعين، لتستند بيدها على درفة الباب الخشبيّ ذي الطلاء الأخضر، تنظر إليهم وهم يتلاشون في البعيد، وتودّع من لا يسمع وداعها ولا يعرف بحزنها تلك اللحظة.

ـ رشيد.

قالتها كاملة هذه المرّة وهي تخرج من الماضي مُستيقظةً لصوت المنادي مرّة أخرى وهو يصيح بصاحبه:

ـ رشيد، كفّ عن المزاح وأكثر من الحطب.

تتجمّع تجاعيد وجهها وتئن أنين المحرومين المُبعدين، تنظر إلى كلبها شميم وهو يحفر الأرض ويطارد فأراً عابثاً:

ـ لنمضِ.

وما أن انـحدرت بقربـهم حتّى مَرَقَ مـن أمامهـا رشيد عائداً إلى القافلة يحمل فوق متنه كومة من الـحطب الغليظ، فهاله منظرها:

ـ أُمّاه.

ـ ....

ـ أتريدين أن آخذك إلى مـخدعك؟

جمعت تـجاعيد كفّيها فوق مدير عربتها:

ـ أبداً يا ولدي، مـخدعي ليس ببعيد.

ـ ....

ـ لنمضِ يا شميم.

فتجاوزتـه ليـأتي مـن خلفهـا صـوت مـجنون مينـار وهـو يـنفض أسـماله ويُؤشِّـرُ بسبَّابته اليمـنى ذات الأنـملة الـمبتورة إلى قصـر الـملك، ويُـردِّدُ بصوتٍ تطحنه الرّبكة:

ـ اسجُدوا للحَجَر، اسجُدوا للحَجَر.

الفصل السادس:

لحنُ الأمس يُدندنُ في الرّوح

عادت خندريس فوق خطاً هادئة، وصوت رشيد يدقُّ ذاكرتها التي صحا فيها الحنين: ر رر شد شد يـ يـ د.

في هذه اللحظة بالذّات سلخت جلد وحشيتها واضطجعت فوق الحشيش الأصفر محاولةً الهروب من هذا الثقب الذي أتى بالماضي، حين دنا اسم المنادي من صاحبه: رشيد.

عند الصباح، وبعد أن جَرّت الشمس شعاعها على وركيها ونعومة جنبها الظاهر لها، كانت قد عادت إلى هيئتها الطبيعية، عريُها لم يتأذّ حين فضحته الشمس، وكلبها شميم عاد طائراً يلاحق الدود الذي يتوارى بين العشب وتحته، فتحت أجفانها عن دمع ترقرق كماء، أدارت بصرها في النهر وفي اخضرار العشب، وأدارت رأسها لتجد

شميم يرفع جناحيه ويذهب في البعيد البعيد، لحن من الأمس كان يدندن في روحها: "رشيد".

نداء قلبها الذائب، وقفت ببطء وقصدت النهر لتغوص عمراً متحوّلاً.

كأنّ نصلاً خفيّاً قصد سلسلة ظهرها وأجلسها منطوية، وجبينها ينزّ عرقاً شديد الملوحة، فانطرحت على العشب كجيفة زجَّ بها راعٍ، عادت كما كانت في السبعين، مائلةً أمام جبل من الذكريات.

وعند احتماء الظهيرة، رفعت جذعها النحيل قاعدة، منقلبة في صورة عذراء، ومُرسلة بصرها النقي خلف البعيد، فنهضت وبلّلت أطراف قدميها فاشتعل جسمها ارتعاشاً، وأطلقت شلال شعرها الحالك ليلتمع تحت ضوء الشمس، ثم انزلقت تدريجيّاً في الماء، وحين خرجت اقترب منها كلبها شميم بعد أن ترك هيئته كطائر ولعق عنقها وشمّها وعَضّها برفق من أصابع يدها وجَرَّها للجلوس، وراح ينبح حتّى فرّت أسراب من الطير عن حافّة النهر.

وما أن نطقت الريح في حفيف الشجر إلا وقد زرّت عليها رداء أبيضَ فضفاضاً وانتعلت قباقيب صفراء، وعقدت شعرها من الخلف بغصن تفاح ليّن، ومضت يتبعها سرب من الحمام الأبيض، كانت الظهيرة قد تصالحت مع اقتراب وقت العصر، حيث بردت الشمس وتنفّست الأرض، كانت قد التقطت في يدها كومة من رؤوس الورد الملوّنة، والحمام الأبيض يطير بعيداً ثمّ يحوم قريباً حولها.

قباقيب من قدمين كاللجين خفيفتي الخطا، تطأ رمل المقبرة وتُنصت للريح وهي تنحت النصائب وَتَصُبُّ الحصى المتطاير على اللحود المحفورة، هَوَت بركبتيها قُرب قبرٍ محفور ترقد على شفيره كلبةٌ بيضاء ذات أذن مقطوعة، تُرضع جروها الأسود وتذهب بلسانها على رأسه ببطء:

ـ لكُلّ الأكباد مَرَارةٌ مكتوبة، ولا بُدّ وأن تنقضي ويذهب كدرها إلا كبدي، ما بَرِحَ كَدَرُها المرّ عالقاً فيها.

يجذبها لُعاب الكلبة الرطب فوق رأس جروها المُتمسّك بثديها ليُخمد انطواء معدته الجائعة، فابتسمت بأمومةٍ وَغَادَرت مُلصقة شفتيها الغليظتين فوق ناي من الذهب:

يموت العشّاق ولا عزاء للعشق فيهم

يموت العشّاق ولا عزاء للعشق فيهم.

***

عشر بِغالٍ بِيضاء إلا واحدة سوداء تَجرّ خمس عربات مُحمّلة بالصخور، يأتيها عن اليمين واليسار صبيّ أبيض قصير الأسمال يهشّ عليها بجريدة نخيل يابسة قُصّصت رؤوسها، تسير خلفه ثلاث نسوة ضربت على وجوههنّ بخمورٍ معطّرة بالحناء، وأدرن على أعوادهنّ عباءات نقيّة السواد، يخطون بأحذية جلد البقر وينهرن:

ـ هُشّ بقوّة، هُشّ بقوّة.

تتضاعف حركة الصبي بالجريدة على مؤخرات البغال لتزيد في السير، بينما النسوة يلكن الحكايات:

ـ قيل إنها عاشقة تقطر عشقاً ودماً.

يتضاحكن:

ـ وكيف يجمع العشق والدم؟

تزيد في ضحكتها الساخرة:

ـ قيل إنها ترمّلت عن زوجٍ أبهج من النهار.

ـ ثمَّ؟

ـ ثمَّ انطوت فترة حدادها بجوار كهفٍ تسكن رأسه أعشاش الغربان، ومخابئ الأفاعي، لتصبح كاهنته بعد أشهر.

يلتفتن في بعض:

ـ رُوي أنها تزوّجت من عفريت بعد انقضاء حدادها.

ـ لا استغرب ذلك لأنني شهدت جنائز عشّاقها في ضحىً فات.

ـ أجميلة لهذا الحدّ، حتى يتحلّق عليها العشّاق؟

ـ بل قمر في بطن الظلمة، لكنّ العمر أبهتها.

مَرَرن بالمدينة وأشارت إحداهن بعصاها:

ـ ها هي مدينة مينار، وذلك هو النهر، تفصل بينهما هذه الصحراء.

ـ لم تخبريني عن حقيقة زواجها بالعفريت.

ـ لست أدري لكن روي لي ذلك، أتصدقين أنها تُغير على القرية وتختطف من الرجال من يروق لها، لدرجة أنّها تنبش القبور قبراً قبراً باحثةً عن ذَكَرٍ طازج.

فَصَمّ ضحكهنّ الهازئ سمع الصبي أمامهن، والتفت فيهن متعجّباً، لتكمل إحداهنّ:

ـ أظنّها تشارك في دفن الموتى للحودهم، ثم تتسلّل فجراً لتريق عليهم فيض غرامها.

لم تتمالك صاحبتاها نفسيهما فانطلقتا في ضحكٍ طويل فبالكاد هَدّأتا من صوتيهما.

وعندما انعطفن نحو الشمس ظهرت لهنّ امرأة نصفها الأخير نصف فرس حمراء ذات ذيل أسود الشعرة الواحدة أدقّ من الوتر، ومبطونة بعض الشيء، ونصفها العلوي لامرأة ذات نهدين مسدلين، وصدرٍ مصبوغ ببقع نمش بيضاء لامعة، وعنق تستدير عليها جديلة خضراء كُلّما دفعها الهواء من جهات ثلاث.

تَوَقّفت البغال عن المسير، وتعالى نهيقها، وتداخل بعضه ببعض، والتصق الصبيّ في إحدى العربات، غامساً ملامحه بين ذراعيه الأجردين، مُستسلماً لنفضة الارتعاد، نظرن إليها والتحمن بعضهن في بعض ينتفضن ويسألن:

ـ أترين ما أراه؟!

طقطقة أسنان تسبق رَدَّ الأخريين:

ـ أبشرٌ أم حيوان ما هو آت؟!

وَقعُ الحوافر في القاع يرتدّ إليهن كالنذير، تحمل في يديها ورداً يابساً جمعته ملفوفاً في ورقة عنب كبيرة استحالت للزرقة حين رفعتها للسماء:

ـ في الآدميين من يدلّني إلى رشيد؟

اشتدّ التحام النسوة بعضهن ببعض وأرخت البغال رؤوسها المحمولة على رقابها القصيرة، وانحنى الصبيّ كي لا يُرى:

ـ في الآدميين من يدلّني إلى رشيد؟

قالتها بصوت مجروح ندّت لها قلوب النسوة، فانسلخت من بينهن الوسطى سائلة:

ـ و. و . ومن رشيد هذا؟!

أرتهنّ وجهاً يبتسم في بكائه:

ـ رشيد! ألا تعرفن رشيد؟!

ثمّ استدارت حول نفسها دورة كاملة، ولذيلها دوران حول نفسه أيضاً:

ـ رشيد، ماء القلب، لهب الهوى، أجدبت القبور عن الجواب من كثرة وقوفي عليها سائلة عنه، وها أنا أسأل عنه الأحياء لعلّ آدميّاً يملك من خبره شيء.

ضَغَطَت بكلتا يديها على الورد اليابس وتطاير فتاته في الهواء، لتجيب الوسطى بلسان ناشف:

ـ لا . لا . لا نعرف أيّ شيء عنه إطلاقاً.

وارتفع صوت الأخرى من خلفها بلكنة حذرة:

ـ ولكن من أنتِ، ومن تكونين؟!

فحال بينهم وبينها صوت مجنون مينار وهو ينفض أسماله ويؤشِّرُ بسبَّابته اليمنى ذات الأنملة المبتورة إلى قصر الملك، ويردِّدُ بصوتٍ تطحنه الربكة:

ـ اسجُدوا للحَجَر، اسجُدوا للحَجَر.

الفصل السابع:

جَحَافِلُ المَوتَى تَعبُرُ الطُرُقَات

ذابَ الظلام فوق مينار مُفسحاً للشمس فرصتها اليوميّة لتفلي رأسها عن همومها الكبيرة قبل الصغيرة.

أطلّت لحظة انسلاخ الجلد الأخير من الفجر، فنفذت أشعتها من الثقوب الدائريّة للسوق، وَسَطَعت على أرضيته الرمليّة كَقِطَع دراهم ذهبيّة لتتمرّد ذيول النهار على الخلاء المنبسط.

عُلِّقت الفوانيس الصفراء فوق أعمدةٍ طُعِنت بها بطون الرمال الشماليّة للمدينة، وشُدَّ بينها بمشانق من حبال أُتقنت لإعدام المحكومين.

أفواج تحيط بالجهة الشماليّة تحاصرها خطوط مستقيمة من الجنود المدرَّبين على ذلك، وصوتُ أحدهم من أوسط الفوج يصيح:

ـ ستسخط عليكم الآلهة، ويلكم حين تجازفون بمهمَّتكم هذه.

ينظر الجند بعضهم في بعض ثم يلتفتون جميعاً إلى رئيسهم الذي يقبض بيده على مقبض سيفه ليَسلَّ ربعه قائلاً:

ـ سيكون السيف أقرب من المشنقة لعنق أحدكم إن فكّر مجرّد التفكير في خيانة الملك.

ثم أردف بصوتٍ متقطِّع:

ـ أفهمتم؟

فهزّ كل جندي رأسه هزّة بمعنى الفهم والطاعة.

طوابير طويلة من الأسرى تُساق من جانب سور الملك، تُساط بأذناب البقر والحمير بأيدي جلادين مَهَرَة، أصواتٌ متألِّمة تُعبِّر عن خطوط الدم المرسومة على الظهور.

وَقَعَ أحد الأسرى في منتصف الطريق ليعيق وقوعه سير البقيّة، فأقبل إليه جنديٌّ ضخمٌ شديد الحمرة المخلوطة بالبياض في بشرة قاسية بطبيعتها، ليصيح به رافعاً عليه سوطه الأسود:

ـ انهض انهض.

تحامل الأسير على نفسه وبالكاد وَقَفَ بمساعدة الأسير الذي أمامه والآخر الذي خلفه.

صوت السوط وهو يلعق ظهره وكتفه أعاق شيئاً من حركة الطابور الطويل، ليدركه جنديان آخران ليزنا معه سَيْر البقيّة.

صراخ نساء في آخر الطابور يندبن حالـهنَّ، يشدُّ حبلهنَّ أربعة من الـجنود الـمتوسطين في الطول والوزن، كانت إحداهنَّ تـحاول مسايرة سرعة السير الـتي تـدفعها سياط الـجنود وصراخهم على الأسرى كي يسرعوا في المشي إلى الجهة الشماليّة حيث المشانق المنصوبة.

في الأرض تتعثّر الأرجـل في الـحصى والـحفر الصغيرة الـتي تـحفرها الكلاب والسباع، أُوقفوا جـميعاً خلف الأعمدة الـتي ينشر الـموت فوقها قهقهته، البوّابة الشماليّة الكبيرة تنفتح مُـحدثةً مفاصلها الـحديديّة صوتاً مزعجاً للحرس الواقفين عن يمينها ويسارها، حصانان أدهمان يَـجُرّان عَرَبةً خشبيّة ذات أربعة أعمدة سُمِّرت على جانبيها، يجلس فيها ملك مينار ذو التاج الذهبيّ الـمحفور بالزخارف والـمرصَّع بـجواهر صغيرة يعلوها جواهر مُكعّبة يلمح بروزها القريبون له فقط، وبالكاد يلمحها البعيد عنه، قمحي البشرة، واسع العينين، طويل اللحية، بيضاء تتوسّطها شعيرات سوداء قليلة، يقتعد كرسيه الرفيع فوق العربة، ويَتَحلّقُ حَرَسُهُ من حوله.

رَفَعَ كفّه الكبيرة ذات الـخطوط الغامقة ليلمع الخاتمان في الـخنصر والوسطى، يُلوّح للأفواج وللجنود والـحاشية الـتي سبقته لـمكان تنفيذ الـحكم.

سارت به العربة حتّى وقفت فوق مرتفعٍ صغيرٍ يـمين الأعمدة ذات الفوانيس الصفراء الـتي تنتظر رؤوس الـمحكومين كي تُعلّق عليها، فتح

جنديٌّ قصير القامة باب العربة لينزل الملك يتبعه حارسه الشخصي الذي يلبس رداء أحمرَ تزهوه زخارف فضيّة.

أَصوات الاحتجاج تتصاعد من وسط الفوج الواقف لمشاهدة الحكم الذي سينفّذ في المَسُوقين بحبلٍ واحد، التفت إليهم الملك وهو يعدّل من ردائه وهندامه فهدأت الأصوات متتابعة متقطِّعة، فأشار إلى رئيس الجند ذي الجسم الطويل النحيل، والوجه الأبيض الأسود العينين، والمُعتمر لعمّة بيضاء ليخطب فيهم، فَصَعِد على صخرةٍ بيضويّةٍ موضوعة لإلقاء الأوامر فارداً بين يديه صحيفة صفراء نتفت جوانبها:

ـ حرصاً من مَلكنا قدّس الرب مُلكه وعناية منه بصفاء الأمن للجميع، فقد أَمَرَنا بتنفيذ حكم القتل شنقاً في أسرى الحرب التي انتصرنا فيها على القبائل المجاورة لمدينتنا.

ثم قام بفرقعة أَصابعه فرقعة تبيّن أنها علامة لتنفيذ الحكم فيهم، فتوسّطت في النقطة التي بين موكب الملك والفوج والأسرى عجوز تتكئ على عصاً بان اعوجاجها الشديد من أعلى، أقبلت على الملك جاعلةً ظهرها للشمس، بينما الرياح تنسج خطوط جسمها الرقيق في قلب الخلاء الأجرد الممتدّ، تَعصِبُ رأسها بعصابةٍ زرقاء، تلبس خماراً أسودَ باهتاً، تلبس بدل الأسوار خيوطاً سوداء، فكشفت عن وجهها: عَرَقٌ يَبِسَ حول رقبتها، شفةٌ بيضاء مرتخية، عينان حمراوان لم يغدق

عليهما النوم بطمأنينته، ينهال عليهما حاجبان أبيضان، جفّت ينابيع حياتها وناحلٌ عودها.

أدارت نظرها فيهم جميعاً ثمَّ انحنت إلى الأرض لتقبض بكفِّها البرصاء قبضةً من الرمل، وترفعها في وجه الملك لحظة نزول دمعتها الفضّية بطعم الحزن، لتسأله بصوت متهشِّم وكأنَّ خلف أضلاعها نسراً يحرقها بمخالبه ويفتِّتُها:

ـ بعض حياةٍ تجلب شبابي المسحوق تحت أقدام السنين، ألا تهبني عُمراً بعدد حَبَّات هذا الرمل؟

تلتفت الحاشية بعضها في بعض ونحنحة تعبر من بينهم، وعُطاسٌ طويل يُسمع من آخرهم، يدور الملك ببصره فيهم ثمَّ ضغط على رأس عصاه الصولجان وقال لها:

ـ ارفقِي بسنواتكِ التي تحملينها فوق عاتقكِ الهزيل يا ربيبة، إن لم تكوني تَجُرِّينها بحبل مسدٍ طويلٍ لا تزال عُقدَتُهُ في كفّكِ كاللظى.

فاجتزأت جُملتُهُ روحها، وانطبعت حُمرة حُزنٍ انبسطت على جفنيها لتلحق كفَّها المتجعِّدة على دمعةٍ تدحرجت على خدِّها الباهت، ثم ألحقت بأسمال ثوبها دمعة أخرى كادت تتجاوز أجفانها، فراحت تمصُّ أظفارها وتبكي.

لم يكترث الملك لها أبداً بل ازداد إصراراً على ما كان يريد فأمر بإعدامهم بنغمة غاضبة:

ـ ضَعُوا رؤوسهم في المشانق.

فدفع الجنود بالأسرى تجاه الأعمدة فاستووا تماماً، ليعرف كلّ أسيرٍ مشنقته، فجميع الأرجل تقف على حافة الخشبة التي تُدفع على عجلات من الخشب الغليظ، وثبّت كل حبلٍ في عنق كل أسير، لحظات كان الجميع يراقبون فيها الجنود الممسكين بجوانب الخشبة الطويلة ليسمعوا صوت الملك من بعيد:

ـ نفّذوا.

فدفعوا بعجلات الخشبة وراء الأسرى ليتساقطوا في الهواء مُعلَّقي الرقاب، وتُسمع الأصوات المخنوقة بغضب المشانق، كانت العجوز ربيبة قد أعطت المنظر ظهرها الأحدب مغمضةً بصرها لتجاهد ماءً يَقطُرُ من تحت أجفانها، ودماً يقطر داخل قلبها.

الفصل الثامن:

المَوتى يَنسُجُونَ الأكفان

وَقَفَ غرابٌ شديد السواد على سور الملك، كانت الظهيرة قد فَكَّت لهيبها على القاع الظامئ، وهناك على أرضٍ ناعمة الحشيش صُفَّت رؤوس المشنوقين بعد حَزِّها حين أطلقتها حبال المشانق، تقف عليها نساءٌ باكياتٌ في ملابس سوداء.

أتى لحظتها عويل امرأة تَشُقُّ دائرة الناس المحيطين بصفوف الرؤوس، وتنوح نواحاً يدفع بضلوعها دفعاً همجيّاً، واضعةً باطن أصابعها اليمنى على فمها لمدافعة البكاء المنجرف من أحشائها، التهمت ببصرها الباكي كل الرؤوس الموضوعة على الحشيش لترى رأس زوجها في آخر الصَّف مقلوباً على خدّه الأيسر، ووجهه تجاهها تماماً.

ضربت بركبتيها القاع الرملي مُتبعةً الوقوع بحنّة انطلقت من حنجرتها ترافقها قطرات دمٍ انتهت واقعةً أسفل شفتها السفلى وعلى ذقنها ذي الوشم الدائري.

تداركتها أيدي الواقفين لتُحمل بين أربع من النساء الكبيرات ليذهبن بها إلى منزل أخيها المتوفى قبل أيام تحت سياط الجند.

وحين تدحرجت دمعة الفجر، وجدوها مُتكَوِّرةً تنحب وتنوح عند جثمان زوجها ذي الرأس المقطوع، ومن حولها اجتمع النسوة يبكين ويواسينها ببرود خشيةً من افتضاح أمر عزائهنَّ فَيَصلَ إلى سمع الملك.

لم يطل بها العمر كثيراً، كانت تمضي الليالي تبكي لدرجة أن صوتها تضاءل، وبعد أيام فقد القدرة على الكلام، وفي ليلةٍ مُطفأةٍ مصابيحها دَوت منها صرخة طويلة ليجدوها قد فارقت الدنيا على إثرها.

***

بعد أيام اجتمع الفوج أمام قصر الملك مطالبين بدفع الفدية لأهالي المقتولين، ومن شرفة القصر أطلّت خبَّابة زوجته الفارسيّة ذات الوجه البدري والحاجبين الأسودين الهلاليين، يلتمع شعرها الأسود تحت نور النهار، فتنة انتقاها الملك من بلاد فارس حين كان أميراً لمينار وذلك بعد وفاة زوجها الأول مقتولاً في حرب مع جيش الملك،

لـمست بباطن أنـملتها الوسـطى شـفتها الـحمراء السـفلى ثـمَّ سـألت حارسها الشخصي بصوت أدقّ من صوت الوَتَر:

ـ ما خطبُ هؤلاء؟! أهو الخبز مرَّة أخرى؟

أجابها وهو يتقرب منها محاولاً أنفه الصغير استراق شيء من عطرها:

ـ أبداً يا مولاتي، يطلبون فدية مقابل قتل أهاليهم صبيحة يومٍ مضى.

أرخت رأسها إليهم لتشاهد الوجوه الممسوحة بالحزن، ذاتها الذقون غير الحليقة والملابس الرخيصة، فنادت رئيس الحرس بصوت أنثويٍّ غاضب:

ـ يا رئيس الحرس، يا رئيس الحرس.

أتاها راكضاً من داخل سور القصر، نحيلٌ، أشيب الشعر، له سحنة مخيفة، ليجيبها بصوت مرتعد:

ـ أمُركِ مولاتي، أمرُكِ مولاتي.

وَضَعَت كفَّها على جدار الشرفة وَأَمَرته:

ـ مُرهُم بالانصراف وإن رفضوا ذلك فأطلقوا عليهم السنابك لتدوسهم.

فُتحت بوّابة السور وخرج رئيس الحرس وهو يصيح بهم:

ـ إن لم تنصرفوا حالاً فسوف ينفذ فيكم أمر مولاتي وذلك بإطلاق السنابك لتساويكم بالقاع الذي تقفون عليه، هيّا انصرفوا.

تصاعد لغطهم وصراخهم واحتجاجهم، فلم يعد يعرف رئيس الحرس ما هي إجابتهم، نظر إليهم قليلاً ثم أشار لأحد الجند بأن ينطلق

عليهم بجمعٍ كبير من الجنود على ظهور الخيل لتدوسهم، وبعد لحظات سُمعت أصوات مفاصل البوّابة الغربية تُفتحُ لينطلق منها فرسان على خيل يغلب عليها اللون الأسود القاتم، ذات أعينٌ ملتهبة كالجمر.

حاول الفوج الهَرَبَ لكنَّ ذلك كان في الوقت المتأخر من الإنذار الذي صرّح به رئيس الحرس قبل وقت.

طَحَنت السنابك من طَحَنت، وهَرَبَ من هَرَب، جُثث لم يُسمع أنينها، وأخرى يزيد أنينها ويخفت، وأخرى يرتفع دون انخفاض.

عَجَاجٌ تركته السنابك خلفها مغطِّياً جثث المطروحين ومشوِّشاً على الهاربين لتتوقَّف ليس ببعيد عنهم، فاستدار فارسهم وصاح برفاقه:

ـ أعيدوا عليهم الهجوووووم.

تبعته صيحاتهم الحماسيّة ونبراتهم الجاهليّة لتدوس السنابك في شوطٍ ثانٍ ما تبقّى من المطروحين الذين كان لهم قدر حياةٍ بسيط، وَهَرَب من كان من حظّه الهَرَب.

تبسَّمت شفتا زوجة الملك ذات الخلقة المغرية عن فرحٍ بالجزاء الذي أمرت بنزوله فيهم، فعدّلت من لبسها وانصرفت داخلةً لتترك عطرها يحرس الشرفة، ومتعةً تغسل فيها أنفاس الجند المنجذبين لرقّتها وجمالها.

وفي الوقت نفسه في الجهة المقابلة للشرفة يجلس مجنون مينار ذو الأنملة المبتورة، والجسم القصير النحيل، المستور بثوبٍ أسودَ قصير الأكمام، نابت على وجهه الأسمر المتّسخ شاربٌ أسودُ كثيف، ينظر بعينين صغيرتين غائرتين، وهو على عتبة باب أحدهم مُسنداً ذقنه الصغير على أصابع قبضتيه، يدحرج عينه في الأفراس وهي تركض بين رؤوس القتلى، رأى جمجمة قذفتها سنابك الخيل قُرباً منه، جمجمةً مفتوحة الفكّين واسعة المنخرين، أتتها زاحفة على الأرض أفعى مرقّطة ليقفَ فزعاً حين رآها تقترب، زحفت ببطء إلى أن صارت قريبة من الجمجمة فاشتّمتها ثم دخلت بين فكّيها وخرجت من المنخر الأيسر، أوجس خِيفة لكنه لم يقرِّر الهَرَب رغم هول ما رآه.

التفت إلى أصواتٍ بشريّة تردِّد شعارات النصر خلف مولى من موالي الملك يحمل رمحاً على نصله رأس مقطوع، يطوف به أزقَّة المدينة وخلفه رهطٌ يحيُّون ويزفُّون عبارات النصر.

تساءل عن هذا في نفسه، فتداعت إليه الذكريات حين كان صغيراً وباب منزلهم يُدقُّ بقوّة في المرَّة الأولى والثانية ويُكسر في الثالثة، ليندفع جند الملك إلى الداخل ويقوموا بطرح أبيه أرضاً وحزِّ رأسه وإلقائه في حجر امرأته، بات مشهداً عالقاً في عقله وقلبه، فارتفع صوته ناقلاً جنونه وبكاءه:

ـ اسجدوا للحَجَر، اسجدوا للحَجَر.

الفصل التاسع:

مَوتٌ يَسبحُ في الطُرُقَات

كُلَّما طَعَنَ الصبح برمحه كبد الحياة من جديد، وقبل أن تبتلع طرقات مينار أجساد الباعة والمتجوّلين والسائرين والمسافرين، ساعة يضرب فيها الملك بصولجانه الغليظ ذي النقوش الراقية والحَفْرِ المغري نافذته المطلَّة على ساحة مينار، ماشطاً ذقنه الطويلة التي امتزجت بالبياض والسواد، ودافعاً ببصره إلى سماء الدنيا كعادته كُلَّما خَرَجَ من نومه الثقيل.

أُعلِمَ في مساء ذلك اليوم بما حصل أمام بوّابة قصره من احتجاج السكان على المشانق التي علَّق عليها أقاربهم وأهاليهم من القبائل المجاورة للمدينة، أخبرته زوجته في اللحظة التي كانفيها خائراً بين نهديها، ليرفع رأسه جارّاً بصرها إليه بنظرةٍ مَزَجت بين الشهوة والغضب، ارتفع جسمه الثقيل الناضج بِعَرَق الحبِّ، مطيلاً النظر بها

لتعيد قولها بصوتٍ مملوء بالرغبة، وهي تمشط رأسه بأصابعها السكريّة الطويلة:

ـ تجمهروا بعد ظهيرة اليوم، فأمرت الجند أن يدوسوهم بالخيل، فكان ذلك مجزياً لهم.

لم يُعلّق على ما قالت ولم يُدر نظره عنها، فسقط خيطٌ طويل من لعابه على حلمة نهدها الأيسر ونطق بلسانٍ مُتهدّل بطيء:

ـ وَقَفوا، عند بوّابة سور القصر يطالبونني أنا، يطالبونني أنا، أنا.

رَدّدها بغطرسة وكبرٍ مهيب، وَنَهَض فبان جثّة عارية لم تُنزع عن عريِه الحليّ التي في أصابعه ورقبته وأنفه ولحيته، فتَحرّك نحو بركةٍ في زاوية غرفته حَفَرَها لمتعه الخاصّة ولياليه البعيدة عن شؤون الحكم في مينار الجائعة الغاضبة.

وَقَفَ على حافّة البركة والتفت إليها مشيراً إليها أن الحقي بي، فألقت الغطاء وتبعته كظبيةٍ تَتَخطّى بحذرٍ خشية من سهم صيّاد يترقّبها، فاجأها ضجيج الماء حين قذف بجثّته إلى البركة ليصيبها بالبلل، فعاتبته بشبه غضب:

ـ أما تراني قريبة من هنا؟

رَفَع لها يده اليمنى لتضع كفَّها فيها ثم جَرَفَها نحوه وغاصا تحت الماء.

***

في مساء الغد أقام حفلاً ضخماً دَعَا إليه سكان مينار صغيرهم قبل كبيرهم، مُدّعياً فيه أنه سيهبهم ما يريدون حتّى يرضوا ويعفوا عنه.
أَمَرَ بوضع قدورٍ ضخمة يتّسع واحدها لجملٍ بأكمله، ورُفِعَت على أحجارٍ كبريتيّة جاعلين رؤوس القتلى والمشنوقين حطباً لها، قرّروا أن لا يوقدوها إلا حين يحضر السكان والأهالي مُلبين دعوة الملك لهم.
كان أهل مينار في تردُّدٍ من عدم تلبية دعوته ليستقرّ الأمر إلى حضور الرجال دون النساء، فذهب وفد من كبارهم إلى مجلسه المنصوب بين البقعة التي نُفِّذ فيها حكم الإعدام والبقعة التي سَحَقت عليها سنابك الخيل المحتجّين والمطالبين بالديات.
أقبل الوفد على كرسيّه لكن دون أن يؤدوا إليه بتحية تُشعره بعظمة سلطانه وبكبير مكانه، صافحوه وهم يقدّمون له نظرات المتوعِّد والمنتظر ليوم يثأر لهم فيه القَدَر، استنكروا بأعينهم وجود القدور الكبيرة قريبة من مجلس الملك وحطبها لم يُشعل بعد، أجلسهم عن يساره وعن يمينه وقال لجنده الواقفين بجانب القدور:
ـ أوقدوا العشاء لضيوفنا، أوقدوه بأجود أنواع الحطب والجمر الذي نملكه.
قُرِّبت شعلة تحملها كفٌّ رجل شديد سواد البشرة، عاري الجسم، لا يستر إلا سوءته المُغلَّظة، وما أن اتَّقدَت النار في الأحجار والرؤوس حتّى فَزِعَ الرجال واقفين وهم يُردِّدون:

ـ ويلٌ لكم.

وبعضهم:

ـ إلهي ما هذا؟

كان منظر النار وهي تَمرُّ على الرؤوس واحداً واحداً، صغيراً وكبيراً، فاتكاً بقلوبهم فالتفتوا إلى الملك سائلين بحرقة:

ـ ماذا يقصد هؤلاء من هذا العمل القذر؟

صَرَخَ بهم ولعابه يركض فوق لحيته:

ـ أخبروا من خلفكم أنَّ من وَقَفَ مُعترضاً على أمرٍ من أوامري فالقتل جزاؤه، وستُصلى جُمجُمته بجانب هذه الجماجم المتفحِّمة.

خاطبه أحدهم بغضب:

ـ ولكنها رؤوس وجماجم أقربائنا يا ملك، إنَّ هذا لمن القهر لنا ولأهليهم.

رفع صولجانه الفضيَّ في وجه المتكلم قائلاً:

ـ من وقف في وجهي فليقتنع بأن هذه القدور بحاجة إلى مزيد من الرؤوس لكي تغلي وتفوح وتجود اللحوم التي أُلقيت فيها.

الفصل العاشر:

صَوتٌ يَقطُرُ مِنهُ الأنين

كُـلُّ شـيءٍ في مينـار يـزداد سـوءاً، حيـث ارتفـع حجـم القهـر، وانكمشـت سـماء الـحريّة، وتناقصـت الـحظوظ، وتفـاقم الطغيـان والعنف، فاستحالت إلى فقرٍ أكبر وإلى وهنٍ أكبر.

مجلس الملك له بابٌ تُزيّنه الأهلَّة الذهبيّة، وعلى أرضيته بُسُطٌ بدويّةٌ ذات ألوان أخّاذة، أُدخل عليه أسيرٌ أبطؤوا في الحكم عليه، متوسّط الطول، تتضح فوق حاجبه الأيسر شَجّة تأخذ شكل البيضة قد التهمت ربع جبهته الصغيرة، له أنفٌ صغير تحته جرحٌ توسّط بينه وبين شفته العليا، وله شعرٌ قليل حيث تُرى فروة رأسه بعض الشيء.

يدفعه حارسان حليقان نحيلان طويلان شديدا البياض، تبدو على أحدهما لمحة الوسامة، أوقفاه أمام الملك وقال أوّلهما بنبرة خاضعة:

ـ الأسير المتبقّي يا مولاي.

أخذ الملك من الساقي كأس الخمر وراح يكرعه مقلِّباً عصاً لها رأس امرأة سوداء وطرفها الأسفل شبيه برأس الحربة، ومضى يشرب كأسه وهو يتأمّل بنصف عينٍ وجه الأسير الذي يخفض بصره ويرفعه كلَّ لحظة.

وعند القطرة الأخيرة من الكأس مَسَح شفتيه بظهر سبَّابته اليسرى وسأل بفمٍ اندلقت منه رائحة الشراب:

ـ أأنت من اغتال رسولنا إلى قبيلتكم قبل حربنا معكم بأسابيع؟

لم تنبت أيّ إجابة على شفة الأسير إلا أنه هزّ رأْسه بالإجابة، ثم صَلَب الملك جسمه على كرسيه وأخذت يده تقبض على لحيته وتفكّها وهو يقول:

ـ مُذ متى تملك الشجاعة في قتل الرسل؟

رفع حاجبه ذا الشعر القليل وانفرجت شفته البيضاء قائلاً:

ـ لم أكن قاتله إلا بعد أن هَدَّدنا بوعيدكم بإبادة القبيلة، وكُلّه لأجل ماذا؟ لأجل رفعك الضرائب علينا.

سكت لحظة ثم لَعق شفتيه بلسانه الجاف وتابع:

ـ ولأجل المرعى الذي يفصل بين حدودنا معكم رغم قربه لحدودنا.

أخذت قبضة الملك تقوى على لحيته أكثر فسأله بنفاد صبر:

ـ وهل تنازعوني في حدودي يا هذا؟

نطق الأسير بلهجة بدت صادقة متوهِّماً أنه سيفهمه:

ـ لِمَ لم ترضَ بمفاوضتنا معكم إذاً؟

جمع الملك كفّيه على عصاه وارتفع جفناه الثقيلان وقال:

ـ لم يعد للأسرى لدينا بقاء أكثر من ذلك.

تمتم المجلس ببلبلةٍ جماعيّة وَنَظَر إليهم بنظرة متكلّمة، فانتشر الصمت فوق الجالسين ليأتي صوته متابعاً:

ـ سنكرمك بكرمٍ لم نكرمه أسيراً قبلك.

تقوّست شفة الأسير وسأل بلُغةٍ متأثرة:

ـ ماذا تقصد؟

قال وهو يشدُّ بقبضته على كرسيه:

ـ امزجوا دمه بالخمر، فخمر مينار لا يناله أيّ أحد.

فاجترّه الحرس وقتلوه بنصل ذهبيّ واحتزّوا رأسه وَمَزَجُوا دمه بالخمر، ووضعوا رأسه بجوار قنانيَّ صُفّت على مائدة صغيرةٍ عند باب مجلس الملك.

فانتشرت قهقهة الملك وجلسائه حتى غصّت بصخبها الجدران المزخرفة بالنقوش والألوان، وما أن هدأت قهقهتهم حتى سُمع صوت يعبر من جانب شرفة المجلس صوت لا يكفّ عن البوح مجاهراً:

ـ اسجدوا للحَجَر، اسجدوا للحَجَر.

تقوّس حاجبا الملك فنظر إلى وزيره ثم صَدّ عنه، فأمر الوزير بجلاوزة يعبرون بحثاً عنه، فإذا بامرأة تنظر إلى طفلها كالمحتارة، أتعدُّ له مهداً أم تحفر له قبراً، نَهَرَتهم من حولها بصوت دام يقطر منه الأنين:

ـ ألا تشبعون من القتل؟!

فهجموا عليها وقتلوها وطفلها ضرباً بالسياط، ثمّ انعطفوا بعدها نحو عَطَّارٍ شديد السمرة، يجلس في دُكَّانه، ذي بابٍ كجلدٍ مزّقته حوافر الخيل، بين يديه وعاء مملوء بالطحين، تذكر أحدهم أنّه لم يدفع الجزية للملك فطلبوها منه، واعتذر عن دفعها بسبب عجزه، فضربوا عنقه ليهوي رأسه في الطحين.

الفصل الحادي عشر:

دَمٌ بطعمِ الماء

تَدَحرجت كُرَةُ النور فوق صفحة الظلام، صوت غسّاق شاعر مينار الكهل يسعل سُعالاً مُتقطِّعاً يتكرّر آتياً من كوخٍ صُنع من جذوع الأغصان الغليظة والكبيرة، تكبُرُ كُرَةُ النهار أكبر وأكبر، يتصاعد سعاله ويخفت تدريجيّاً إلى أن أضاءت الشمس مساحات مينار المسحوقة بمعاول التجبّر.

سُمعت حركته من داخل الكوخ واتضح بطؤها المتّسم بقوّتها، تتجه خطواته ذات الوَقعِ البطيء نحو الباب، فتحه وانزلق النور إلى داخل كوخه، ليرخي أجفانه ويفرُكَ بإبهامه وسبّابته اليسرى أسفل عينيه، وجهٌ متقلّبٌ في جحيم الهموم، وشفتان دقيقتان تطوّقان فماً واسعاً، وأنف طويل واسع المنخرين وبشرة ذات طراوة تحرّكها التجاعيد التي سكبها

تقدّم العمر يلبس ثوباً أبيضَ مرقَّعاً بثلاث رقع صفراء خِيطت بخيوطٍ سوداء، ورقعةٍ سوداء رُقعَت أربعها من أوسط ثوبه إلى أسفله.

خَرَجَ من الكوخ يتلمّس بعصاه الدرب، يرفع رأسه إلى السماء قليلاً، عينان معصوبتان بعصابةٍ سوداء ليست بالعريضة، حيث قُطِعت له حسب عينيه الصغيرتين اللتين طمسهما العمى حين كان ابن الثانية عشرة، وذلك جرّاء مرضٍ أرقده الفراش لأيام طويلة، بعد أن أغلق عليه جند الملك في حفرة مقدار ارتفاعها المتران وعرضها متر أو أقل بقليل، ولم يغادرها إلا بعد أن خلّفت له العمى كتذكارٍ يلازمه مدى الحياة.

تتابعت دَقّات العصا على الأرض كحاسّة تشتمُّ له مخاطر وانزلاق الطريق، وَقَف ليس ببعيدٍ عن كوخه، قُرب تلٍّ رفيعٍ اعتاد صعوده كل صباح، لينسج من فوقه سطوراً من الشعر الذي يتدفّق من قريحته كإبلٍ تتزاحم على الماء.

أخذ نفَساً طويلاً مَلأ به رئتيه اللتين اسودّتا من ابتلاع التبغ، وَقَفَ بعد حاسّاً بانتفاخ رئتيه عند الحدّ الأخير، ففاضت زفراته مُخرجةً معها كل ما عَلِق برئتيه وأنفاسه من روائح تعب الحياة ونكدها بمينار.

لَعق شفتيه وَصَعد التلّ حتى أيقن بأنّه وَقَفَ أعلاه، ثم رفع رأسه مُتبِعاً عصاه لتجاري ارتفاعه يُشير بها تجاه مينار، يحسُّ الآن بأنها أمامه

تماماً، تسري بجلده حرارة الظلم والندم، فتح شفتيه وقال بلسان ينطق شعراً:

نبأٌ، أتى البيداء من حيث لا تدري
خيلهُ سُؤددُ المُدلجين،
صَولجانُ حروفه مُرصَّعٌ بماسِ الفجيعة
وسُلالةُ الفخر تندسُّ تحت أثوابه الرثَّة
يا آخر البحر
خُذ بيدِ الغرقى قليلاً
يا ضارب الرمل
من لصبرٍ عينه مفقوءة؟
ومن لظنٍّ شراشف نومهِ موبوءة؟

ثم أرخى عصاه إلى الأرض وَسَكَت مُصغياً إلى صوت الهواء وهو يعبث في جريد النخل، حيث تَتَداعى من ذاكرته تقلّبات الحياة وهو صغير، وأصوات البشر الـمُشفقة على انطماس بصره، اشتغلت في ذاكرته صورٌ يراها الآن، جريرة القهر من يدفع ثمنها؟ يتمنّى لو يعرف. ظلَّ واقفاً مكانه كعادته كل يوم، ينسج الشعر تلو الشعر إلى أن تدفعه شمس الضحى إلى كوخه الصغير، حيث يرهقه الحرّ وطول الوقوف، ولكن كان لعادته نهاية، إذ وَصَل بعض هذا الشعر إلى الملك ليأمر بإحضاره مقيّداً.

وفي صباح اليوم التالي اضطجع أربعة من الجند المأمورين بالتربّص به واقفاً ينعى مينار على ذاك التلّ، وانتظروه ليقف منشداً كعادته:

ها أنا ذا

جسدٌ مُشرَّعٌ للظمأ

غصنٌ على سجّادة الرمل انحنى

ها أنا ذا

أكرِع أقداح الصبر الظلوم

وأدوسُ على كرامة المللِ

وأُبدّدُ ثروة الأمل في حانات الحياة

*

أنا لا أتسوّل المحبّة

ولا أطلب إعانة الأعداء

أنا أضرب بيد الأوراق بحوافر القصيد

وأُطعمُ بنات الفكر توت معناي الفريد.

وما أن أنهى مقطوعته وأرخى عصاه، حتّى قاموا بالتقاطه من ذراعيه والسير به وهو يسأل بخوف:

ـ من أنتم؟ من أنتم؟

ليُركبوه مقلوباً فوق بغلةٍ سوداء، ويذهبوا به إلى الملك، وهو يناديهم:

ـ إلى أين تذهبون بي؟! إلى أين تذهبون بي؟!

يأتيه صدى صوته من كُلّ مكان في الصحراء وهم يبتعدون به عن التلّ.

***

أوصى وزير الملك بأن يُصيّر في ذراعيه حديدتان موصولتان بسلسلة في حديدة تُطوّق عنقه، فجيء به إلى مجلس الملك عصراً، وأُوقف أمامه بعد أن فُكّت عصابة عينيه ليتلفَّت مُتتبِّعاً الأصوات التي تتهامس من كلّ جهة.

يمضغ الملك قطعة من جوز الهند، وهو يملأ عينيه من هيئته، فليس إلا جسماً تفتّقت الحياة في أوردته، صوت المضغ يصل إلى مسمعه ليجاذبه بتدلّي طرف لسانه اشتهاء للأكل، فوقف الملك واتجه نحوه وهو يسأله باحتقار كبير:

ـ قِيل لنا إنك تقول الشعر مذ ولدتك أمك خبّازة الحي؟ إن لم يخطئ من قال لنا هذا!!

خفض غسّاق رأسه وهو يقول:

ـ الشعر، آهٍ منه، كائن وفيّ.

تأبّط الملك صولجانه، ووضع كفّيه بعضهما على بعض وأعاد:

ـ قلت لك: قِيل لنا أنك تقول الشعر مذ ولدتك أمك خبّازة الحي؟ عليك أن تجيب كما سألتك وإلّا. . .

قاطعه:

ـ بدون (إلّا) هذه مولاي، سأجيب على نصّ سؤالك كما تتحب وتريد.

قال الملك مبتسماً بزهو:

ـ حسناً، أخبرنا.

جمع غسّاق يديه فوق عصاه وهو يقول:

ـ ما نُقل لك من أنني أقول الشعر وأنا في المهد، فهذه ليست إلا أساطير فقط.

ـ وما الواقع إذاً؟ وما داعي وقوفك فوق ذلك التلّ ترثي المدينة وتصبّر نفسك؟

ـ هناك لست إلّا أغزل حياتي يا مولاي، أحسُّ أن الشعر نبأٌ أجيء به ممتطياً صهوة السحاب.

أحسّ بكفّ الملك وهو يضعها على كتفه قائلاً:

ـ أظنّه ليس إلا وهماً كبيراً أُفرغ في جمجمتك، لكن هذا لا يمنع أن نسمع منك ما يقنعنا، قُل قُل.

ـ أيأذن لي مولاي.

أجابه الملك وهو عائد ليجلس على كرسيه:

ـ أسمعنا، أسمعنا.

ثمّ مُشيراً إلى أحد الحرس:

ـ أعيدوا عصابة عينيه لعلّه يُبهرنا.

صمت غسّاق ورفع رأسه لأعلى بعد أن زفر زفرة طويلة وأنشد:

صُورتي القَلِقَة

أراها مُعلّقةً في فضاء الرموز

ترتعش في ملامحها أفلاك المساء

جُدُرُ الطّين

أين الباحثون عن منازل الغيث؟

والسالكون من حيثٍ إلى حيث؟

مَن يحلُبُ ضَرْعِ السنين الطويلة لفرسان الخطوب؟

فأقف حائراً

ليصفعني السؤالُ جائراً

ويجيبني ثائراً:

اسأل جمجمة التاريخ العتيقة.

- يكفي.

- ....

- لم تقل لنا؟ ألك أمنية؟

- ومن الذي ليس له أمنية يا مولاي؟

- وما أمنيتك إذاً؟

- تمنَّيت أن يعود لي بصري كي أُقلّبه في النجوم المتناثرة.

ابتسم الملك ساخراً:

ـ أمنية لا بأس بها، وفي أيّ سماء؟

– في سماء مينار، هذه السماء التي تآكل بدرها.

قال الملك بعد أن صرّ على أسنانه:

ـ أنت ترمز في شِعْرِك وأقوالك بتشبيهات تصفني فيها بمُغيّب للعدالة، وأنا أعدل الخلق فيكم.

تلعثم غسّاق محاولاً إيضاح غير ذلك، لكن صوت الملك كان أعلى إذ أمر:

ـ كافئوه على ما أسمعنا بهذا.

فالتقط رمحاً فضيّاً من يد أحد الحرس، وأعطاه لوزيره مردفاً:

ـ وليكن ذلك في صباح الغد، لعلّه يُدبّج لنفسه مرثيّة يردّدها السجناء من بعد قتله.

فالتقطه اثنان من ذراعيه واقتاداه إلى زنزانة معزولة عن السجون، فكان آخر ما سمع من مجلس الملك وهو يُقاد خارجاً ضحكة الملك تبعتها ضحكات الوزراء والحاشية وهم يكرعون قنان الخمر ويأكلون من ظهور الظباء.

***

لامست كفوف النور جديلة الليل المعتمة، لتلوّنها بالنهار شعرةً شعرة، يقبع ساعتها الشاعر الأعمى بين أربعة جدران ضيّقة، حيث

يلتصق بزاوية الزنزانة كهرٍّ مريض، سمع قرقعة من المعدن تصطدم بأعمدة الزنزانة بلطف، وكأنّها تتسلّل داخلة إليه، نادى سائلاً:

ـ هل من أحدٍ هنا؟!

أتته ضحكة رئيس الحرس حيث ألصق نصل الرمح الفضيّ تحت ذقنه قائلاً:

ـ لم يبقَ لك في الحياة إلا أقلّ القليل.

عَرَف صاحب الصوت من لكنته، لم يعلّق بل ظلّ يراقب تحرّك النصل الفضيّ من تحت ذقنه وهو يُدار نصف دائرة، إلى أن سمع مرّة أخرى صوت قرقعة اصطدامه بالأعمدة مبتعداً عنه تتبعه في الابتعاد ضحكات الرئيس الساخرة منه.

كان الوقت من صدور الحكم فيه حتّى هذه الساعة كافياً ليتيه صوته بين الزنازين وهو ينشد بيأس طيلة الوقت:

أتعلمين ما الوطن؟!

عينٌ مُبلّلةُ الأهداب، وعِشقٌ قد هَرِم

أتعلمين ما الكفن؟!

هو آخر الأصحاب من دُنيا المِحن

لا تسأليني ما الضجر

رُوحٌ مُغلّفةٌ، وقلبٌ مُنهدم

صَدئت مشاعر قومنا

خِيطت شفاه حقوقنا
تساوَت حياتنا والعَدَم
ثَمّة حائرٌ
أغمدت الحَيرة سيفها في ضلوعه
وكانت الرّاحة أبعد على شفته من رأسِ كُوعه
وثَمّة سارٍ
أَكَلَت الطريقُ أخفاف نوقه
ولم يصل.

وكلّما أعاد قولها ارتسَمَت تجاعيد وجهه أكثر، ونضح جسمه المريض بالعرق والملح، يعيدها ويعيدها بشتّى الأشكال، إما مُنطرحاً أو مُستنداً أو متكئاً، وبأي هذه الحالات يزداد سوءاً على سوء.

***

احتمت شمس ذلك الصباح، وسُمع صوته ينادي:

ـ سأكون معجزة بقرب النهر، سأكون قسّيساً عظيماً يحمل أقفالاً ذهبية لا تُعطى إلا للمسالمين.

أبطأ يُردّدها مذ حُمِلَ بين حارسين ضخمين أسمرين، يسحبانه تاركين أصابع أرجله تصنع كالأمشاط خطوطاً في الأرض، ليسنداه على جدار طينيّ بعد فكّ عصابة عينيه وتقييد يديه من خلفه، وقبل إكمال الاستعداد لإعدامه سألهما طالباً:

ـ أليس لي بشربة ماء قبل أي شيء؟

فجيء بقدحٍ صغيرٍ من الفخّار مُلئ نصفه من الماء الدافئ ووضع بين يديه، فرشف منه رشفة أولى وأبعده عن شفتيه وهما تقطران بللاً دافئاً، وأنشد بصوت شبه جاف:

ـ يا حادي الأرواح يا من ترتقب

الآن يسقط فارس قصّتي بين الزحام.

وحين أتمّها سَدّد الرماة له ثلاثة رماح فضيّة، اخترقت صدره مستقرّة في جدار الطين، ليسقط القدح من يده ويتكسّر الفخّار ويتناثر ما بقي فيه من الماء ويختلط بالدماء.

وبعد العصر انطلق حنين متواصل، وخيباتٌ كثيرة، كانت كلها تتتابع من أعين المشيّعين لجنازة غسّاق المخترقة برماح الفضّة، يتحرَّك المشيّعون بتكاسل وحزن، صوت مجنون مينار وهو ينفض أسماله ويؤشِّرُ بسبَّابته اليمنى ذات الأنملة المبتورة إلى قصر الملك، ويردِّدُ بصوتٍ تطحنه الرَّبكة:

ـ اسجُدوا للحَجَر، اسجُدوا للحَجَر.

لن يُسمع صوت غَسّاق شاعراً بعد اليوم، ولن يدقّ الأسماع رنين شعره الحزين.

الفصل الثاني عشر:

أسنّةٌ تُقلّبُ أحشاء القلب

كُتلة بشريّة يغصُّ بها أوسع طرق مينار، احتجاجاً على قتل شاعرها غسّاق، كان عَلّال مُتخبِّطاً وَسَط الزحام، مُعطياً جسمه لهبوب الصيحات العالية، بَشَرٌ مُتدفِّق مُنفلت من عقله وصبره، سابحٌ في الغضب، تدور رحى الزحام دون توقّف، وفي لحظة ليست بموعد رأى سراب سلافة يمرق سريعاً مثل السهم، تعالت نشوته فَثَمِل وراح يقفز مُحاولاً الإمساك به حين يعود كرّة أخرى، كرّر القفز فلا شيء غير العمائم البيض والأجساد المتزاحمة.

كان على حَدّ البكاء لو لم يعاود سرابها العبور، فدفعه انقباض في قلبه كطفلٍ التقط بسرعة من صدر أمه، فانسل من السيل البشريّ مُنطلقاً ناحية المنازل بقلب مُمتلئ بالهيام، اندفع ناحية السارية التي رآها ترقص خلفها لأول مرّة، فقفزها ورمى بقلبه قبل جسمه على ذاك

التراب يشمّ طينه ويدفن وجهه في رائحته، فشعر أن ملاكاً يقف على رأسه، فشرع يتأمله إلى أن أدركته عباءة الليل، فهو يعرف نفسه حين يكون صاخباً وعندما يهدأ يصير ندىً لا معاً، فسمع صوتها مُنادياً:

ـ عَلّال.

فَخَرَجَ إلى الليل يركض مذعوراً تجاه الصوت، يناديه بنبرةٍ أكثر ارتفاعاً:

ـ عَلّال.

يشهق فيوجعه الشهيق، ففطن لجماعة من الجلاوزة تدخل الليل مُتنقّلةً في نور المشاعل بين الأشجار، سأل نفسه:

ـ ماذا ستقول لهؤلاء حين تمسكك أيديهم؟!

انبطح بين العشب فنحوله يساعده تماماً على التخفّي، رآهم يجمعون القتلى ونداء أحدهم لآخر في الجماعة:

ـ إلى الدفن الجماعي.

أضاء البرق وكأنّه سَيشقّ السماء نصفين، فأووا إلى صخرةٍ مُكعّبةٍ قريبة منهم، هَرَبَ علّال على أربع نحو صخرة بيضويّة حاشراً جسمه النحيل أسفلها بقدر المستطاع، لم ينم تلك الليلة فالرعد سلبه غمضة العين.

ناداه الصوت نفسه من فوق الصخرة الممطورة:

ـ انهض علّال انهض.

خَرَجَ مُتلبّساً بشغفه مُوقناً أنّه سراب سُلافة، فالليل مُضاء بخطوط البرق، بدأ يُحسُّ بأنَّه شَاخَ في هذه الساعة فعلاً، فمضى حتّى أدرك

حافَّة النهر حين توقَّف المطر، فشرب منه كالذي لم يذق الماء دهراً، غَسَل وجهه فأرعبته برودة النهر أكثر، وهو يمسح وجهه رأى رأساً مسلوخاً يطفو فوق الماء، فتراجع إلى الخلف ليقع على مؤخرته، مُرسلاً شهقاته الثلاث فرجع الصوت ينادي:

ـ عَلّال عَلّال.

عَزم على أن يلاحقه، فانطلق نحوه لينزلق بعد مشوارٍ قصيرٍ في حفرةٍ قصيرة العمق حيث ارتطم بمولى من موالي الملك، وجهه مربّع ذو جبهةٍ تجاعيدها كثيرة، لظاهر كفّه السمراء التي يمدّها إليه ملمس خشن، ذات عروقٍ ظاهرةٍ دليلاً على الكهولة، يئنُّ من ساقة المبتورة ويصيح به:

ـ أخرجني من هنا، أخرجني، لا أريد أن أموت في هذه الحفرة.

بَذَل جهده في إنقاذه فأفجعته قِطعٌ حمراء جامدة تنطلق من فمه، وهو يتطوّى على الطين كأفعى الرمل، ففطن لخفوت صوته، وصمت أنينه، حنى عليه رأسه فوجده قد مات بعد نزيف طويل، فأعاده سحباً إلى حفرته، وأهبطه برفق حيث أرخى رجليه ثمّ فخذيه إلى أن وَصَل برأسه ويديه، ثم دفع الطين عليه دفعاً قارب الساعة حتّى شَعَرَ بالإعياء والذرَّات تتراقص أمام عينيه، لمح شيئاً يشبه حافر الثور يخرج من الطين، أغمض عينيه، ثم فتحهما بقوّة فاختفى الحافر مُتنبّهاً للأصوات من خلفه، جماعة الجلاوزة يقفون مرتدين الجلابيب،

رؤوسهم مَلفوفة بأغطية بيضاء، من خلفهم طابور من الحرس والموالي، أمسكه كبيرهم من حلقه وسأله:

ـ ما تفعل هنا؟

أجابه ولأسنانه طقطقة حادّة:

ـ أ أ أدفن صديقي، فقد مات منذ لحظات.

فأشار إلى صحبه بأن يوسعوه ضرباً بأعواد القصب التي خصّصوها لطرد الثوّار، فأحاطوا به وأذاقوه من لسعها حتّى أغمي عليه، ثمّ أركبوه على بغلة رمادية وأمروا الغلمان بإيصاله إلى السوق، ليؤدبوا به السكان.

تجمّع من في السوق عليه وهو مُلوّنٌ بالكدمات مُتدلِّية رجلاه ويداه من فوق ظهر البغلة، فأنزلوه وأضجعوه تحت حائط طينيّ كبير، ففطنوا لجلاوزة آخرين يقاربون الثلاثة عشر، يجرّون خيولهم البيضاء سائرين على أقدامهم، شعر رؤوسهم طويل غزير، تتدلّى سيوفهم من أحزمتهم تاركين مقابضها الذهبيّة، حيث إنهم مُتعبون من مراقبة الثوّار المطالبين بدية غسّاق، صادفهم سقّاؤون أربعة، يعتمرون عمائم بيضاء، شواربهم مُنكفئة على شفاههم، حليقو اللحى خلا الذقون، يلبسون ثياباً زرقاء طويلة قليلاً، ينتعلون أحذية صُنعت من الخشب، لها قرقعة مزعجة على الأرض وهم يمشون، ثلاثة متوسّطون في الوزن ومتقاربون في الطول، والرابع ثخين وقصيرٌ جدّاً، يحملون قِرَب الماء الفارغة من

فوق حميرهم السود، قِرَباً رماديّة طويلة مزخرفة بالأبيض، أوقفوهم وتناولوا القِرَب لشربها فلم يقطر منها قطرة واحدة، فصفع أحدهم السقّاء القريب منه شاتماً:

ـ أين الماء؟

فتقهقر للوراء قليلاً وهو يتمتم خائفاً:

ـ لقد فرغ كل ما في قربنا اليوم.

فَعَبرت بقربهم جارية تَلُفُّ رأسها بمنديلٍ أخضرَ مُزيّنٍ بمسبحةٍ من الخرز الأصفر، ضفائرها ممشوطة إلى عجيزتها، ويداها عاريتان حتّى الكتفين، ومع كُلّ خطوة يَرنّ خلخالها الذهبيّ، فأحاط بها الجلاوزة فضايقوها أيّ مضايقة، فحاولت التملّص ولم يتُجدِ ذلك معهم، فاندفعت راكعة أمام أحدهم لامسة حذاءه بشفتيها النحيلتين، ترجوه أن يخلي سبيلها، لتقاطعهم اللحظة التي ضَرَبَ فيها خمسينيّ من بين المتفرّجين فرسه بكلتا راحتيه وصرخ:

ـ ابتعد وراءك.

التفتت له بعينين مِلؤهما الانكسار، فهرول إليه اثنان منهم وانهالوا عليه بسياطهم الحارّة، حتّى أوقعوه أرضاً تغطيه الدماء الناتجة من جروحه التي رسمتها السياط، فانتهزت الجارية الفرصة والتقطت خِنجر الواقف أمامها من حزامه وغرزته في خاصرته، فقبضوا على السياط بكُلّ قواهم وأحرقوها جلداً وقيّدوها من يديها ورجليها بحبال متينة، ثم

علّقوها فوق جواد أحدهم، وحملوا صاحبهم على جواده بعد أن خلصوه من النصل، وأغلقوا جرحه بسرعة وذهبوا به، فَرَفع عَلّال يديه مُخبراً ومُنبّهاً بأنَّ جماعات الملك ستدور في المنطقة غداً، ليتراخى على الحائط الطينيّ، حيث حُمِل بعدها إلى منزل أحدهم لتلقّي الرعاية هناك.

وحين وَصَل الجلاوزة بصاحبهم المطعون إلى قصر الوزير وجدوا أن الموت قد طواه، فقال الوزير بوعيد:

ـ الناجون من سياطكم لن ينجوا من سجون الملك.

أخذ شهيقاً وزفره آمراً:

ـ حسناً، قُبيل الفجر ابعثوا بسريّة تجزيهم على فعلتهم.

فأمر بعدها بحبس الجارية، قيل إنّها ماتت وهي في الحبس بعد أن تعاقب عليها السجناء بأمرٍ منه، فأصبح طيفها يُجدّد العهد مع المفاجأة، فلا يظهر إلا ليلاً وفي النهار ينزوي في مكان ما، بعيداً عن أعين السكان، وحين يأتي الليل يرتاد سطوح المنازل وَيُرعب الأطفال ويخاتلهم في أحلامهم.

هاجرت بعد ذلك عوائل كثيرة من المدينة، ابتلعت الصحراء حلمهم، حيث إنهم قصدوا القبائل القريبة منهم، لقد أصبحت أرض مينار مُخضّبة بدماء وأجساد أهليهم وذويهم، لم يكن برفقتهم إلا المرض والجوع والعطش والموت الطائر فوق رؤوسهم، بعض النساء تركن

أطفالهنّ في أحضان أُخريات باقيات، خشية من أن يخطفهم المرض أو العطش أمام أعينهنّ، فرأين أن يموتوا بعيدين أرأف بقلوبهنّ من أن يموتوا على مرأى منهنّ.

المحنة ساقتهم شيوخاً ونساءً وأطفالاً على طريق القحط والجفاف، لم يستطع أغلبهم المكافحة للبقاء، فحين يقع واحدهم من ضغط المرض عليه، يكون قد اختار مكان موته.

الفصل الثالث عشر:

أصابعُ تلمس أوتار الأسى

خَرَج علّال من مينار لاحقاً بمن خرجوا قبله، قاصداً إحدى القبائل المجاورة، تحدوه الآمال العظام، حيث الوقت عصراً، ليس ببعيدٍ عن المغيب، عَبَر ضفّة النهر الغربيّة، الموضع الذي تقيم فيه الفتيات للضحك والاستمتاع قبل الليل، قَطَعَ مسافة ليست بالقصيرة، فدكّه التعب من السير، فأوى إلى شجرة عريضة تدنو أوراقها من القاع قليلاً، وذلك حين صار الوقت فوق شفرة الغروب، أخرج من جيبه خرقة صغيرة، هي ما اغتنمه من قميص سُلافة الممزّق بأنياب السبع، أرخى بصره المتعب على لونها الهادئ فهدأت ملامحه الشقيّة.

بعدها ارتقى إلى رأس جبلٍ فوجد معبداً فقير البناء، تَتَحلّق عليه بعض الصخور المفتّتة، شَعَر بالوحشة حين قضى ساعة هناك، فأخرج الخرقة ثانية وأطال النظر إليها، خيل إليه أنّه يراها حقّاً فنطق بحبّ:

ـ أيّ غرامٍ أنزلتني فيه يا سُلافتي؟

مَلأ رئتيه بالهواء وَزَفَرَ ناطقاً:

ـ لقد أدركتكِ باكراً لكنني حُرمت من الاغتسال بماء لقائك!

قَبَضَ على الخرقة بقوّة مردفاً:

ـ هل تشعرين بي؟

فألصق خدّه بها مُغمضاً عينيه لتنحدر على خدّه دمعة حارّة، ليقف مُعلّقاً روحه وكأنّه ينتظرها تحمله إلى السماء، انحدر بعدها إلى أسفل ورمى نفسه على مرتفع رمليّ قريب كالعائد من تطوافٍ طويل، فسافر به النوم إلى حدود وقت العشاء، وحين صحا دعك عينيه بظهر يده، وأخرج الخرقة وجرت عيناه بسرعة فوقها، توغّل في لونها ورائحتها، صمتٌ ثقيلٌ يؤلمه، فأحسّ بضيق النَّفَس وهو يقلّبها في يده مُرخياً شفته السفلى حُزناً اعتاده كُلَّما قلّبها.

أفزعه صوت قائد جماعة قادمة، كاد ينخلع قلبه من نبرة النداء اليابسة حين ناداه:

ـ هيه أنت.

كادت عروق عنقه الطويلة تتجرّح من الانتفاخ حقداً عليه، فبقي ساكناً مُتحيّراً في وسيلة خلاصه منهم، تشبّث بالصمت حتّى وصلوا إليه، فتفاجأ بأن هدأت النبرة التي نُودي بها أولاً مستبدلاً بها لغةً مستهزئة:

- أيها الحمار، لِمَ لا تعود لأهلك؟

فمضى مسرعاً في طريق العودة كأنّه متنبئٌ بما يُراد منه.

***

على وَقعِ خُطاه المرتبكة فوق التراب، كان خيال سُلافة يعبث بقلبه إلى أن وَصَل إلى النهر، فنظر في وجهه على صفحة الماء: مزيجٌ من الحيرة والحسرة، دقّق في ملامحه فلاحت له براءته وسكونه، وجهٌ أبيضُ طويل، يغلب عليه الهزال، شُعيرات مُتفرّقة على لحييه وذقنه البارز، تساءل: هل من أحدٍ يلمس بإصبع قلبه وتر الأسى الممدود في صدري؟

عند الفجر وصل إلى مينار وقد التصق رداؤه بجسمه من العَرَق، مع أن لليل نسمات باردة ماتعة، لكن الخيالات التي تطحنه طول الطريق أرهقته، انتبه لراهب يقعد على حجرٍ صغيرٍ أمام منزله، وفي يده كتابٌ مقدّس يقرؤه، وحين مرّ بقربه أطبق الراهب الكتاب وناداه بعفويّة:

- من أين يا بُنيّ؟!

اضطرب قلب علّال وارتجفت روحه، فالتفت إليه ببصرٍ غير مستنكر، واقترب منه وقصّ عليه خبره من بداية طلوعه من مينار إلى ساعة عودته هذه، فقال له الراهب بهدوء:

ـ لا جدوى من التفكير بالهروب يا بُني.

فكأنّ هذه الجملة دفعت حِملاً ثقيلاً عن إحساسه بفشل الهروب، وبعد وقت قليل تَمَطّت أنوار النهار على المدينة، وحين استوت الشمس في السماء، جاء جنود أصحاب عِصيٍّ غليظة فالتقطوا صبيّاً ذا ثلاثة عشر عاماً من أمام منزل أهله، فَجَأرَ بالصراخ وهم يسيرون به إلى النهر، لينزعوا عنه ثيابه ويغمسوه في الماء الشديد البرودة، والكُلُّ يشاهدونه في لحظة استولت فيها الشفقة على بعضهم والحقد الأعمى على آخرين، فتركوه وذهبوا ليجلس باكياً مقرفصاً تحت شجرة صغيرة.

أتت إليه إحداهنّ ولمست جبينه قائلة:

ـ لا عليك يا ولدي أنت أعظم حَظّاً.

ـ ....

ـ على الأقل كوفئت بالماء البارد ولم تكافأ بالدم الحار.

ـ !

اجتهد في افتعال اللامبالاة بيد أنّ قلبه يغصّ بالبكاء، وبعد الظهر كان يلعب مع الصبيان المنتشرين بقرب الجبل كحمامٍ يلقط حبّ الأرض، فدنا من سمعه صوت جنديّ يناديهم:

ـ ها هم خذوهم.

فالتقط حجراً كبيراً بسرعة، وَرَفَع ذراعه آخذاً وضع الاستعداد للرجم وهو يُهدّد:

ـ اقترب إن كنت رجلاً.

فَبَرَزَ من بين أغصان الأشجار سهمٌ طويلٌ أرسله صاحبه إلى إبط الصبيّ، في الوقت الذي كان يكيل فيه التهديد للجندي، ليُسمع صراخ أمه ذات الشرائط الطويلة، وهي تركض نحوه لتنطرح فوقه تناديه:

ـ ميراد ميراد.

ضَغَطت بكفّيها على خدّيه ليلوح لها بياض عينيه، ففجعها موته بين يديها، فَرَفعت رأسها للسماء نائحة:

ـ لتنقذينا أيتها السماء.

حَكّ الجندي أنفه وشاربه الطويل، وكأنّه يُحذّر: إياكم واعتراض جنود الملك.

أخذت حزنها بعد أن أطعمت جُثّة ابنها للتراب، ووقفت عند قصر الملك حيث إنّها لم تنزع عينيها عن بابه الضخم الذي اصطفّت أمامه صفوف الحرّاس، ليسألها أحدهم:

ـ ما خطبُكِ يا امرأة؟!

ـ جنود الملك، أتوا مع الفجر يقرعون طبول الموت، وانتزعوا روح طفلي بسهمٍ غادر.

ـ أتشكّين في طهارة مقاصد الملك؟

ـ لقد فرضتم علينا الحرمان، وتُصرّون على أن تجنوا مِنّا المديح الذي لا تستحقونه.

ـ . . . . . .

ومن بعيد اقترب موكب الوزير من القصر، فصاح جنديّ بها بعد أن تَرَجّل وَتَرَكَ العِنان:

ـ ابتعدي عن الموكب يا امرأة، ابتعدي.

أصرّت على البقاء ورفعت يدها كما لو أنها تريد أن توقف الموكب، لكنّه أكمل طريقه ليتوقّف داخل القصر، لينزل الوزير وهو يعبث بسبحته اللؤلئية حول أصابعه وسأل:

ـ ما كانت تريد الواقفة عند الباب؟

ـ كانت تعرض لنا عقيدتها.

ثم تابع دون أن يستعيد أنفاسه:

ـ حاولنا إبعادها لكنّها أصرّت على الوقوف

فأمره الوزير بصوت لطيف:

ـ أخبر تلاميذك بأن لا يتكرّر هذا المنظر ثانيةً، فلا وقت لدينا للمشاجرة مع النساء، خُذوها من هنا الآن.

فأحاط بها الحرّاس وسملوا عينيها، وقطعوا رجليها، ورموها في السوق.

وفي المساء أتى على السكّان مطر الخوف المنهمر من جنود الملك، الذين أتوا يردّون على الاحتجاجات الصغيرة التي كانوا يخنقون بها بعض الشوارع، رائحة الأرض كما لو أنّها رائحة الموت، لقد دفعتهم شهوة القتل يتبعها غضب الاعتقالات، ومجنون مينار ينظر لهم وهو ينفض أسماله ويؤشِّرُ بسبَّابته اليمنى ذات الأنملة المبتورة إلى قصر الملك، ويردِّدُ بصوتٍ تطحنه الربكة:

ـ اسجُدوا للحَجَر، اسجُدوا للحَجَر.

الفصل الرابع عشر:

مَصَايرُ مُخَلَّعة

نَفَسٌ باردٌ من الفجر الأخير يلمس ضوء المصباح المُعلّق في سقفٍ خشبيّ بمنزلٍ يؤوي أسرة صغيرة: زوجين وثلاثة أطفال أقل من ثماني سنوات، أيقظهم ارتجاجٌ بقربهم، يسمعون صراخاً وركضاً من جهة النافذة النائمين هم أسفل منها، كأنَّ أشباحاً من جنبات الظلام تقع وتنهض وتتلاحق حول المنزل، شيءٌ من الخوار المرعب ينطّ في السماء وينخفض بسرعة، شظّى الرعب عقولهم كحدّ الخنجر.

عَدوٌ وسقوط على التراب الناعم جوار منزلهم، الزوجة تلمس بكفّها العرق البارد الذي يسبح في جسمها الخائف، النار رفيقة الدخان، صياحٌ من الأسفل ومن الأعلى، وأنين طويلٌ وراءهما، استوى الزوج على فراشه، فتعلّقت بذراعه تتوسّله بالبقاء وضبط الصمت، رفع بأصابعه الأربعة اليمنى خصلات شعرها الأسود عن عينها اليسرى ثمّ

لمس بقدميه الدافئتين برودة الأرض واتجه إلى النافذة، ليعطي لعينه فرصة فهم ما يدور في الخارج، لم يرَ في الظلام غير أجسادٍ مقيّدةٍ تحاول التخلّص من قيودها.

- سنُقتل.

قالت الزوجة له وهي تبتسم بخوف بينما أصابعه تشير لها بعدم الكلام.

- سنجوع أقلّها.

فرحلت كلمتها لتتوقّف في أذن جنديٍّ يعبر قربهم يجرُّ أسيراً من عنقه، فأمر مرافقيه فوراً، شَعَرَ الزوجان أنَّ الجند يأتون من أمكنة متفرّقة، خَلَعوا الباب واقتحموا المنزل عليهم، فرمت الزوجة خدّها إلى خدّ رضيعها وجمعت ذراعيها حوله.

سألوا الزوج عن اسمه واسم زوجته، لم يجب لئلا يعرفوا من صوته المشنوق أنّه يبكي من الشعور بالذل، قَتَلَ أحدهم الزوجة بسيفه ومسح دمها بجديلتها، وأخذوا الزوج بعد أن أوسعوه ضرباً في عربة من عربات الأسر.

***

في مساء الغد فتح الزوج عينيه على صوتٍ عند باب السجن، فتحة صغيرة من أسفل الباب وُضِع الطعام من خلالها، لكنه كان

أعجز من الوصول للطعام، لأنّه مقيّدٌ تحت نافذة السجن المقابلة للباب.

بعد وقت سَمِع صوت سجناء يسعلون ومنادياً شديد الحدّة يصرخ للحرَّاس:

ـ الدخان، الدخان يأتي مُتسرِّباً من السقف، الدخان، الدخان.

كانت تلك وسيلة من وسائل القتل البطيء التي يستخدمها جلاوزة الملك في السجناء المحكومين بالإعدام، لم يطب له مأكل ولا مرقد في سجنه المظلم، فبعد أيام راح يبكي من ألم أسنانه التي تتساقط من لثَته التي أتلفها المرض، ويبلع دمه ويمجّ بعضه كُلّما حاول أن يرفع رأسه، وبعد ثلاث ليالٍ سحقته الحمى بعد أن ربطت لسانه عن الهذيان، رقَّ له نائب رئيس الحرس فأمر بإخراجه ليومٍ واحدٍ، ثمّ يُعاد بعدها، فأخرجوه إلى منطقة مُعشبةٍ قريبة.

أيقن أنّها رحلته الأخيرة، تلسعه جروح جسمه المتهاوي، وهلوسات عقله تعاند همّته في النجاة، تذكّر زوجته المقتولة على أيديهم فاختلطت ذكرياته بمصيره، تمنّى أن يعرف مصير أطفاله الثلاثة لا أكثر، قُدرته على التحمّل بدأ يخسرها مذ اقتحموا عليه منزله، أصرّ على أن يعاند قسوة الحياة في مينار بما تبقّى من رمق إنسانيته في إنقاذ نفسه، سلبوا منه كُلَّ شيء حتّى أمله في الشفاء، لم يُبقوا له سوى أن يؤجّجوا شهوته بأن يموت، فكلّما هَرَبَ من عذابٍ أولجوه

في عذابٍ أكبر، يزحف جارّاً جسمه المأكول بأسنان المرض، ويصرخ طالباً منهم:

ـ أَحرِقوني، أَحرِقوني واتركوني حتّى أصير رماداً.

وَقَعت كَفُّ النعاس على عينيه وأغمضتهما لينام تحت نخلةٍ طويلةٍ ذات عذوقٍ قد قُطِعت.

بالكاد تجاسر وفتح عينه حتّى ركضت على سمعه صيحات الظفر، فإذا هم جنودٌ حليقو الرؤوس، شديدو السواد، متقاربون في الطول، يرفعون في أكفّهم حراباً طويلة، يلعبون بها فوق رؤوسهم ويتناوبون قذفها في السماء، تَمَعّن فيهم وهم يتراقصون فالتهبت مفاصله وعظامه من الخوف، رأى على مقربة فتاة تَجُرُّ بغلتها وخرافها البيضاء، طويلة قليلاً، وجهها بيضويّ ملامحه دقيقة، ولها مسحة قرويّة، تحمل بيدها اليمنى الصغيرة سلّة صغيرة مُغلقة على ما بها، تنتعل حذاءً أبيضَ، بوجهها شجّة صغيرة أعلى أنفها الصغير، ويبرز فوق عينيها الناعستين حاجبان مقرونان، وجبهة صغيرة، ينام فوقها شعرها الأشقر القصير، ماضية نحو منزلها في الجهة المقابلة لها، اعترضوها وهم يضربون أكفّهم المخضّبة بالدم والسواد، شَعَرَ بالخزي وهو مُنطرح كالمشلول.

داروا حولها كالذئاب الجائعة، وَشَرَعَت حرابهم تنزع بأسنتها الحادة قِطَعاً مُتفرّقة من جلبابها الأسود الطويل، حتّى جرّدوها تماماً، لتُكمِلَ

الأسنّة مشوارها في تسديد طعناتٍ عديدةٍ في جسمها المبريّ، إلى أن وَقَعت سابحة في دمها الشديد الحُمرة.

اقتادوا بغلتها ومواشيها وذهبوا بها وهم يتراقصون ويتغنَّون ويرفعون حرابهم إلى السماء، جَرّ جسمه المعطوب وزحف نحوها، وبصعوبة وَقَفَ على جثمانها، أفجعه دمها الحار الذي مَجّته أوردتها الضيّقة، أخذ يصيح ويصيح فلم يكترث به أحد، كَرّر صياحه الباكي حتّى بَلَغَت حنجرته حدود التعب، فمضى ينتف شعر رأسه وأهدابه بطريقة هستيريّة، فأعادوه إلى سجنه.

دخلوا عليه في الصباح بعد أن استنكروا صمته الطويل، الذي سبقه بكاء من ألم أسنانه ولثَته، والذي أعقبته الحمّى بوطأتها الثقيلة، قاموا بحمل جثّته ورميها من فوق الجبل، ليستقرّ مكانه سجينٌ آخر.

صادر جنود الملك بعدها منزله الذي تحيط به روائح الجُثث الكاتمة للأنفاس، كُلّ ذلك عندما أغاروا تلك الليلة بأمر الوزير، حيث جَرَت الدماء في الدروب وعلى جدران البيوت، استطاع قليل من الناجين الفرار من بين الصخور والأشجار الجنوبيّة المؤدّية إلى القبائل القريبة من المدينة، لم يبرز في صورة الدم غير مجنون مينار وهو ينفض أسماله ويؤشّرُ بسبَّابته اليمنى ذات الأنملة المبتورة إلى قصر الملك، ويردِّدُ بصوتٍ تطحنه الربكة:

ـ اسجُدوا للحَجَر، اسجُدوا للحَجَر.

***

في اليوم الذي تلا العرس الدَّمَويّ، هَرَب أحد كبار الحرس من القصر قبل أن تفتح نافذة الفجر أضواءها، ذلك بعد أن كلّف حرسه بحراسة إضافية لجناح الملك ثم امتطى فرسه الرّماديّة ذات الغرّة البيضاء، وَعَبَر بوّابة القصر ناحية السوق حيث الدكاكين ذات الأبواب الخشبيّة المغلقة، ثم اجتاز النهر وحقول القصب المتساوية في مساحتها، مُنحدراً نحو قبيلةٍ تبعد عنهم مقدار نصف يوم من المسير.
شَعَرَ بالخلاص وهو يتقرب من حدود القبيلة وخياله ما برح يعرض له صور سكان المدينة وهم يُقتلون بالطعنات الحادَّة من أكفٍّ مُتمرّسةٍ على الضرب بالخناجر والسيوف القواطع، تلك الأكفُّ التي عملت بأمر الملك ليست إلا أيدياً تعبث بالجسم الذي هي منه.
جدران المدينة ارتوى طينها من دماء الأبرياء، وأصحاب الحق من الثوّار حتى سالت على بلاط القصر.
حين وَصَل إلى القبيلة كان أشعث الشعر، مُوشى بالشيب، أحمر العينين، استقبله أحدهم مُمتطياً حصانه الأبيض الضامر البهيّ، فترجّل مُعطياً لجام فرسه لسائس خيل صغير العمر، ركض إليه ليتولّى أمر فرسه.
عند باب أمير القبيلة انحنى الخدم احتراماً له، واهتمُّوا بخلع سترته الزرقاء وتلميع سيفه ذي المقبض الذهبيّ المُزيّن بالجواهر الصغيرة.

وحين راح لسان الشمس يلعق جلد الأرض بحرارته، كان أمير القبيلة يسأله باستغراب:

ـ ما الذي دفعك لشقّ عصا الطّاعة للملك؟

ـ الظلم والقتل الوحشيّ يا أمير.

ـ . . . .

ـ يقاتل كُلَّ الناس طَمَعاً وتكبُّراً.

عَقّب الأمير على حديثه:

ـ كأنَّ طموحه استعباد الدنيا وأهلها.

بعد وقت استولى على عينيه خَدَرٌ مفاجئ اختزنه جسمه من التعب طيلة السير الطويل، فأمر الأمير بتجهيز مكان مفروش له للنوم، وحين أغمقت الشمس قرونها الذهبيّة في بطن الظلام، وسكتت السماء شاهدة على حدث جديد، عَقَد أحد أفراد القبيلة نيّة القصاص من ملك مينار بقتل اللاجئ والخلاص به لذويه، فخطّط للنيل منه.

وفي الصباح خَرَج للقبيلة مُلوّحاً بالخنجر المُلوّث بالدم، بعد أن تسلّل إليه نائماً، فهلّلت القبيلة وكبّرت، لِيُفجع الأمير بذلك فخرج إليهم ليجدهم يصرخون في وجهه، ويتوعّدونه إن آوى أحد حاشية ملك مينار بأن يفعلوا به كما فعلوا بسالفه.

فسحبوا الجثّة، وسملوا عينيه، وقطعوا أذنيه، واجتثّوا لسانه، وقطعوا يديه ورجليه، وَعَلّقوا رأسه على شجرة طلح قريبة من منازل القبيلة.

الفصل الخامس عشر:

أجسادٌ تتدثّرُ بالدم

أُريق الماء الساخن في الزنزانة التي خَلَت من السجين الأخير، وجُهّزت بجوارها الأخرى حيث أوثقوا القيود الحديديّة في سواعد معارضين ثلاثة، تَزَعَّموا حشداً صغيراً ينادي بنزع الملك، وَوَضَعوا على أعناقهم صفائح نحاسيّة وَصَفّوهم كثيرانٍ تُساق إلى المرعى، حيث يُركلُ أوّلهم من أحد الجند وهو يقول له ساخراً:

ـ اسمك من الآن الرقم واحد.

وأضاف بعد سكوت:

ـ أسمعت؟

هزّ رأسه بالعلم واجترّهم آخرُ من السلسلة التي أُوثق حديدها في سواعدهم الشقيّة.

مضوا بهم بعد أن نطق القاضي بحكمهم:
- السجن ثلاث عشرة سنة، تَتَخلّلها الأعمال الشاقّة والتعنيف لكُلّ من تُراوده فكرة الهَرَب.

ابتسموا ساخرين من حكمه لتتغيّر ملامحهم إلى الخوف من سهمٍ غاضبٍ من وجه عقيد السجون، أُدخلوا بعدها عَبْرَ طريقٍ مظلمٍ ضيّقٍ رُصف بالحجر الأسود.

كانوا ثلاثة، في وثاقٍ صدئ غليظ، يجرُّهم سجّانٌ عريضٌ يسير حسب أوامر العقيد الآتية على هيئة شتائم:
- اذهب، اذهب بهم إلى مأواهم.

وصلوا بهم إلى الزنزانة المجاورة لزنزانة السجين التي للتو بَدَت نظيفةً من دمه وأسنانه بعد أن غادرها ميتاً، أدخلوهم في مساحة لا يمكن أن يمدّوا أرجلهم فيها معاً، واحدٌ فقط يريح رجليه وساقيه، بينما ينتظر الاثنان عاكفين مفاصلهما على ألم العضلات الضاغطة.

أرضيّة سُوّيت بخشب اللحاء الدقيق، حيث بَدَت شديدة الخشونة، وسريعة بإلحاق الأذى بمن يقع عليها، جدران ثلاثة من الطوب العريض، طُليت بدهان رماديّ منطفئ، بينما الواجهة الرابعة عبارة عن سياج حديديّ عريض الأعمدة، يتوسّطه الباب الطويل والمسوّى في أسفله باب صغير بحجم صفحة الكفّ، كي يُدفع منه وعاء الطعام ..

سوّي له قفلٌ من الخارج على مزلاج أثقل من طوبة واحدة، يُوقظ صوتها حين يُزلج كافة النزلاء.

زنزانةٌ ضيّقة، في قبوٍ عمره خمسون سنة، أكفٌّ مُتجرّحة تقبض على القضبان الفولاذيّة، تلمع من فوقها أبصار مائعة تسأل عن أمنية الخلاص.

ثلاثة رجال أشباه بشر، ممزّقي الثياب، أحدهم مفقوء العين، واثنان غُطّي رأساهما بأكياسٍ نتنةٍ، خلّصا رأسيهما منها فور انغلاق الباب عليهم، السجن الضيّق وضِع في ركنه مرحاضٌ صغير شديد الاتساخ، وبصوتٍ مشروخٍ قال الأول لصاحبه:

ـ ما يؤلمني هو أنّني سأُحرمُ لذّة مريم سنواتي الباقية، وسأموت ما ذقتها.

دنا كلامه من سمع صاحبه وهو يعبث بأظفاره، فقال له بصوت منحوت بالحقد على النساء:

ـ هنيئاً لك الحرمان من لذّتهنّ.

ابتسم الأول بشفة مائلة إلى لحيه الأيمن وأردف مُتعجّباً:

ـ أيطيب العيش دونهنّ؟ أظنك لم تذق لذّة في حياتك!

فأصدر الثاني ضحكة هازئة سَرَت في الممرّ الفاصل بين الزنازين، وانطلق نحو المرحاض وضغط دفع الماء، ليقول بضحكٍ أكثر:

ـ ليذهبن بلذّتهن مع هذا الماء.

وزادت ضحكاته أكثر وأكثر، وهو عائد إلى مكانه، لم يُعلّق الأول على حديثه وتصرّفه، مؤمن بأنّ كُلّ قبيحٍ يولد في هذه الزنزانة، وكُلّ مُشينٍ من العمل تخلقه النفوس المقهورة فوق مهاجع السجناء.

في ظلامٍ لا ينتهي، استحالوا إلى يرقاتٍ حُبست في شرنقة، فوق فُرشهم الزرقاء ذات الرائحة الكريهة، وحين أطفأهم النعاس نَهَضَ ثالثهم ذو العين المفقوءة ليودع ضرباته وركلاته السريعة على خيال عقيد السجون المرسوم على الجدار، ويبكي بشكلٍ هستيري، حتّى احمرّت عينه من حرارة البكاء، فَنَهَض أولهم على بكائه العالي، وأدار رأسه ناحيته صائحاً معاتباً:

ـ أتظنُّ أنك بِعَمَلِكَ هذا ستفعل شيئاً؟ أم ستؤثر فيهم؟

تَوَقّف وَنَظَرَ إليه شادّاً على أنفاسه كي تهدأ، فاغراً عن فمٍ غارق في اللعاب ونقط الدم القليلة، وما أن ارتاحت نفسه حتى سأله:

ـ وماذا نفعل إذاً؟ هل تملك الحل؟

اتّجه الأول ناحية النافذة عاقداً يديه هامساً ببطء:

ـ الهَرَب.

شَدّ الثالث قبضته وصرخ به:

ـ أنت تطلب المستحيل، من سيهرب من هذا الحديد ومسحوق الحجارة المحكم من كُلّ جهة، حتى الأرض لن تخرقها.

حَلّ الأول التحام يديه:

ـ النا ا ا فذة.

ـ . . . .

ـ الهَرَب بأسهل الطرق وأيسرها فهي تؤدي إلى سقف القبو فوراً.

أتاه صوت ثانيهم من قرب المرحاض:

ـ ومن أين لك بقوّةٍ تفكّ هذا المربّع الحديديّ؟!

استدار الأول نحوه مجيباً:

ـ نبحث عن طريقة للحصول على أداة نشتغل بها عليها، حتّى نقتلعها من مكانها، ومن ثمّ نهرب في وقت مناسب للهرب.

اقتربا منه قائلين:

ـ ومن أين نحصل على هذه الأداة؟

لَعق شفتيه وقال:

ـ اسمعا، هناك حديدة شديدة السماكة تكون غالباً في قعر المرحاض...

قاطعه ثانيهم:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن نخرجها ونستفيد منها في مهمّة الهَرَب.

هَمَسَ إليه صاحبه الثالث:

ـ ولكننا سنحتاج المرحاض في أيّة لحظة؟

ـ أعرف ذلك، بالتأكيد لن نجعله مكاناً فارغاً.

- . . . .
ـ سَنَسُدُّهُ بقطع الحَجَر كي يؤدِّي عمله دون خلل، ونكون بهذه الطريقة استطعنا البدء في خُطّتنا والاستفادة من المرحاض.
ابتسموا وَشَرَعُوا في الخطّة، وتجاوزوا النافذة نحو السقف، وما أن خرجوا للنور إلا وكان سبعة من الجند في انتظارهم.
وفي الصباح اقتيد أولهم إلى غرفةٍ مجاورةٍ، ليسمعوا الجلاد يصرخ به بعد أن أَكَلَ السوط من جلد ظهره وأكتافه:
ـ اعترف، من وَضَع الخطّة؟
وحين انعدمت الإجابة منه، أضجعوهم ثلاثتهم، وَهَووا على رؤوسهم بالفؤوس، لتفور دماؤهم في عين الشمس.

***

وقبل أن يرتعش نور الفجر، رموا رؤوسهم المقطوعة، ففطنوا أن دمها لم يتوقّف، فانطلقوا ليقفوا عند بئر مُعطَّلة، لتفاجئهم شفاههم الزرقاء وهي تتحرّك وتنطق، فأنزلوا أحدهم والتقطها من البئر، وأمروا آخر بأن يضعها بعيداً عن مينار، بين جذعي شجرة في قلب الصحراء تحوم قربها الغربان، كان الآخر يحمل الرؤوس الثلاثة ويرتعد من ازرقاق أعينها واتّساع مناخيرها، فَدَبَّر لها لفافة تحجبها.
وَصَل إلى الشجرة عند احمرار الشمس، فأخرج حبالاً صَنَعَها من فروع الشجر المتينة، وتسلّقها حتى وَصَلَ إلى مَفْرِق الجذعين، والدم يصنع

دوائره الحمراء في ردائه الأبيض، اتكأ على خَدِّه الأيسر فَتورّطت لحيته بخشونة الغصن، وحين اطمأن إلى أنّه أنهى ما أُمر به، عاد نازلاً فانزلقت قدمه وهوى على رأسه فتهشّمت جمجمته، لتتحرَّك شفاه الرؤوس مخرجة ضحكة جماعيّة ساخرة لم يسمعها غير الدواب الزاحفة، حيث يعبر قُربها كُلّ مغيبٍ مجنون مينار، وهو ينفض أسماله ويؤشِّرُ بسبَّابته اليمنى ذات الأنملة المبتورة إلى قصر الملك، ويُردِّدُ بصوتٍ تطحنه الرّبكة:

ـ اسجُدوا للحَجَر، اسجُدوا للحَجَر.

الفصل السادس عشر:

وَتَدُ الألـمِ يَضرِبُ عميقاً

تـململت سجون مينـار التي شُقّت في الأرض بـمقدار عشرات الأمتار، والـمُودع في ظلماتـها المئات من المحكومين، حيث يَزجّ فيها الـملك ووزراؤه ورؤساؤه الـمقرّبون كُلّ من يـخالف لـهم قـانوناً أو نـزوة من نزواتـهم التي لا تنضب.

يتكوّرُ سجينٌ تحت باب السجن الكبير بعد أن ذبلت ملامحه: قصير الطول، أمسح العين اليسرى، ذو فمٍ واسع تـحيط به شفتان سمراوان، له جبهة قصيرة ينسدل عليها شعر رأسه الأشقر المتّسخ، يلبس قميصاً أزرقَ ذا أزرارٍ كبيرة سوداء، ينتعل حذاءين بُنّيين، رُبِطَ ظهرهما بـخيطٍ باهت السواد، يـحكّ بكعبهما جانب ساقيه الـمتأذيتين من الشعور بالـحكّة الـمُقرفة، وشيء من الجرب الذي يسري كُلّ ليلة أكثر من التي قبلها.

يميل رأسه يساراً حيث يريحه على ظهر قبضته اليسرى سائراً في غفوةٍ يحلم بها سجناء مينار، أصوات السجناء تتداخل بعضها ببعض: اليائسين، والساخرين، والمسلّمين لحظّهم، يستيقظ على حركةٍ مزعجةٍ بجانبه، مصدرها شجارٌ بين سجينين أخرسين، سُلّ لسانهما قبل أن يُدفع بهما إلى السجن، نظر إليهما بعينه الصغيرة، وهما يتعاركان كديكين فبالكاد يُسمع منهما خبط الأعضاء ولهب الأنفاس الغاضبة، التفّ حولهما السجناء ليصنعوا بحلقتهم هذه ميداناً يتقلّب فيه الجسمان المتعاركان.

اندفع نحوهما لفصلهما بعضهما عن بعض حتى لا يؤذيا نفسيهما أكثر ممَّا فعلا، ارتطم بهما واخترقهما بجسمه القصير القويّ، فارتفعت أصوات السجناء بلومه ونعته بكُلّ قبيحةٍ لإفساده متعة مشاهدتهم العراك:

ـ ابتعد، ابتعد، ابتعد.

أيادٍ كثيرةٍ ترتفع في السماء بصوت جماعيّ غاضب، تماماً كما ارتفعت في ساحةٍ صغيرةٍ من المدينة، دفعوا ثمنها بالحكم عليهم في الظلمات سنواتٍ من أعمارهم القصيرة.

اختلطت الأصوات وتعالت حتّى لمس صخبها شحمة أذن نائب رئيس الحرس ذي الشارب الطويل حتّى ذقنه العريض، وعينيه الواسعتين المعتلي فوقهما حاجبان أسودان، يتأبّط في يمينه عصاً صفراء اللون

غليظة، حيث يقف في عنق الممرّ الصخريّ المتعرّج، ويُكرّر على الحرّاس الواقفين أمامه بطابورٍ غير مستقيم:

ـ سجّلوا أسماء المُعدمين في صحيفة صد . . .

سَكَت فوراً ثم تابع سائلاً:

ـ أليست هذه الأصوات مصدرها من هناك؟

وأشار بإبهامه الضخم الملفوف بقماش أبيض إلى السجن الذي امتدّ منه الصراخ واللوم، ثمّ انطلق نحوه وتبعه الحرّاس مهرولين.

صوت العراك يزداد كلّما اقتربوا منه، وصل إلى الباب وأطلَّ بنظر خاطف من النافذة الخاصة بباب السجن، ليعضّ شفته السفلى كناية عن غضبه ممّا يجري، فدخلوا إليهم وسحبوا المتعاركين وثالثهما السجين الأمسح.

أُدخلوا إلى غرفة مُظلمة دُقَّ في سقفها قنديل ذو إضاءة بيضاء ضعيفة، وأُجلِسُوا على ركبهم بعد أن قُيّدت أيديهم خلف ظهورهم، وكُمّمت أفواههم بمناديل من القماش الأسود المخصّص للسجناء، ثم راح يدور حولهم كنسرٍ يحوم حول فريسته، باسطاً كفّه اليسرى، يمشطها بعصاً يستخدمها في جلد السجناء المشاغبين والمعاندين، فأبطأ في دورانه حولهم وأعينهم تتكلّم عن شفاههم قائلة: ألا تنظر في أمرنا؟!

توقّف مُغمضاً عينيه وقال لهم بغضب:

ـ تعلمون أننا لا نقبل المشاغبة في سجون الحاكم، ولا أذكر أنَّنا مَرّرنا مثل هذه المشاغبات دون أن تُعطى العلاج المناسب لها، ليتأدّب من كانت له نيّة لمثل هذه التصرّفات في سجونٍ وُضِعت للتأديب وليس لتصفية الحسابات الخاصة.

أخذ السجينان الأخرسان ينطقان كمواء القطط متوسّلين بأن يجزيهما بالعفو، بينما السجين الأمسح مستسلمٌ لصمته، نَظَر له النائب وسأله بسخرية:

ـ وأنت، لِمَ تتصرّف تصرّف المسؤول؟! هل أوليناك على أحدٍ كي تسعى إلى هذه الفعلة؟!

فدَنا منه وأدرج سبّابته ووسطاه تحت ذقنه ورفع وجهه في وجهه، وقال بصوت ساخرٍ مُهدّد:

ـ ستكون ميتتك غير مسبوقة في مينار كلّها.

ليطلق ضحكة عبّأت الغرفة وهو خارج منها.

***

وبعد ستّة أيام من عزلهم في زنزانة خاصة تحت الأرض، حيث لا ينفذ إليهم إلا الشحيح من الضوء والهواء، أُخذوا من رقابهم ودُفعوا عبر الممرّات التي تفصل بين السجون والتي تتكاثر على جنباتهم مناقع قاذورات السجناء ومخلفاتهم المتعفّنة، ليصلوا بهم إلى الباب الصغير النافذ إلى النهار والضوء الذي نسيته أبصارهم من ستة أيام، انغلقت

أجفانهم على أعينهم، وَسَرَت حكّة في عين الأمسح حاول أن يطفئها بأيّ وسيلة ولم يفلح، ثم أجلسوهم متقابلين ككلاب مريضة، فوق عربة خشبيّة ذات عجلات صغيرة يجرّها بغلٌ قصير، لينطلقوا بهم نحو سوق مينار تتبعهم عربة النائب بصحبة اثنين من تابعيه، فصوت سير العربة والبغل أشعرهم بحقارتهم في أعين حاشية الحاكم ومدى قيمتهم عنده كبشر.

توقّفوا أوسط السوق، وأحاط بهم الموجودون لحظتها، ليترجّل النائب من فوق عربته ويصيح بالواقفين فوق رؤوس المحكومين:

ـ اقتلوهم كما أُمرتم.

فالتقطهم الجند من أرجلهم وجرّدوهم فوق حصى الأرض وحفرها الصغيرة، وأضجعوهم كالشياه وشرعوا في نحرهم بسكاكين يقارب طول الواحدة أقل من الذّراع بقليل، ثم قطّعوا أوصالهم وألقوها مُوزّعة على أبواب أهاليهم، باستثناء الأمسح الذي رفعه النائب من شعر رأسه ساخراً:

ـ سأكرمك بموتٍ لم أُكرمه لكلبٍ قبلك.

ثم أمر بتقييده بين العربتين وانطلقتا في اتجاهين متعاكسين، حتّى انقسم الجسم إلى نصفين غير متساويين، ليقوم بحزّ رأسه من النصف الذي أخذه معه، ووضعه في لُفافة زرقاء ودفع به مع أحد الموالي ليضعه عند عتبة أهله.

ما الحسرة إلا أقنعةٌ تُرمى إلى ملإٍ آخر، حيث هاجرت أم الأمس بأسرتها تاركة مينار بعذابها، مُخلِّفة البأس الذي أرّقها ودفعها لأن تحزّ أصابعها بنصل رمح صدئ، ظنّاً منها أنها تَتَحدّى قلقها وألمها على موت ابنها الوحيد.

سارت الأسرة القليلة المكوّنة من الأم وطفلتين صغيرتين، وجوهٌ مسخها بؤس الحياة، تحوم فوقها أكلة الجيف، لا همّ إلا هاجس الوصول والنجاة بأقل قدرٍ من الحياة، الأم تساوي كل لحظة منديل رأسها الأبيض المائل عن شعرها المتّسخ، وتسحب تِباعاً جلبابها الممزّق من العنق إلى الصدر، مبتعدة عن مينار الغارقة في الدم، لأنّها ترفض أن يغرق ما تبقّى من أسرتها أكثر مِمَّا مضى.

عَبَرت بطفلتيها جانب وادٍ كُدِّست في بطنه عشرات العشرات من الجُثث التي أزكم نتنها أنوفهنّ ليسرعن في المسير أكثر، قيل إنهنّ وُجِدنَ ميّتات بجانب صخرة كبيرة وآثار عربات الجند فوق كواهلهنّ.

الفصل السابع عشر:

أَرضٌ تتَمزَّقُ هَمّاً

حين نُتِفَت آخر شعرةٍ بين الليل والنهار كان قد مرَّ بقصر الملك مجنون مينار الذي تستره الأسمال الناضحة بالشفقة، ينتزع شكله الدمع من العيون انتزاعاً وهي تشاهده يَتَسَكَّعُ في الشوارع وكأنَّ الأرض ستميد به، ينفض أسماله ويؤشِّرُ بسبَّابته اليمنى ذات الأنملة المبتورة إلى قصر الملك، ويردِّدُ بصوتٍ تطحنه الربكة:

ـ اسجُدوا للحَجَر، اسجُدوا للحَجَر.

الأنظار تأكلها الدهشة وتشدُّ عَجَبَها من حاله بحبل سؤالٍ متين، قيل إنّه حين كان طفلاً أجلسته أمُّه على زلِّ رُشَّ بطحين أبيض، ثم أتت بديكٍ سمين أسمرٍ اقتلعت منقاره ودفنته في ماء نفث فيه باسم الجان كعقيدة تؤمن بها ظنّاً منها أنّها ستهب ابنها نبوءة خارقة، فشبَّ فتىً تخضع له التجارب وتنحني لذكائه عقول الدُّهاة، وكعادة الغيرة التي

تأخذ مكانها جيداً في قلب وزير الملك، أُخِذَ وأُجلِسَ مُقيّداً على صخرة بيضاء ليقطر الماء على جمجمته أياماً، ليست بالطويلة لينتهي به إلى جنون أُوصِل إليه بِيُسر، فأمضى سنواته يجوس شوارع المدينة مُردِّداً:

ـ اسجدوا للحَجَر، اسجدوا للحَجَر.

فأمر الوزير به فصيّروا في عنقه حديدة ومنعوه الماء حتّى مات ببطء.

كان له أخ في الثامنة وأختٌ متزوِّجة في عقدها الثالث اسمها راوية ذات قدٍّ متوسّط الطول يميل قليلاً للامتلاء، ووجه عليه مسحة قليلة من الجمال، وشعر أسود قصير ترتفع أطرافه قليلاً عن كتفيها، وعينين كثيفتي الأهداب، وأنف جميل واسع المنخرين.

فهي مُذ سارت سنواتها إلى اليوم وهذا الليل يرفض أن يُنزل حقائب أسفاره عن كتفها، تَدَاعت الأيام على زوجها وانتشله الموت من بين زوابع الحياة في صبيحةٍ صفراء، وذلك حين أتت لتوقظه من نومه، هزَّته من كتفه وهي تناديه:

ـ يا فلان يا فلان يفتقدك الصباح.

كانت الهزّةُ الرابعة جالبة لأطراف أصابعها برودة جسده الميت، فمرَّرَت أناملها على أجفانه لتجدها يابسة، رفعتها ببطء لتُبصر عينيه وقد ابيضَّتا من نزعة الموت.

ففـي تلـك الصـبيحة مَثَّـل الـجند بأسـرى آخـرين وسـيق أقاربـهم في سلاسل الأسر، كما أحرقوا البيوت وجرّوا أصحابها بالحبال.
ملك مينار لـم تُغيّره السنون، لأنّ ما مضى من حُكمه ليس إلا لـون الـدماء ورائحـة الأمـوات، فكـلُّ شـيء مـن حـولهم دمـاء، "السـيف الـمشهور، والكفـن الـمنشور، والقـبر الـمحفور"، لقـد أحـرق الأكـباد، وفَطَّرَ القلوب، وطَعَنَ الأرواح.
لـم تُعط تلك الزوجة فرصة النواح على زوجها، فقـد دَلَفَ عليها جند الـملك وأخـذوها في جـماعة مـحكومة بالقتل في ظهـيرة يطعـن صيفها العظام، جَرَّدُوهم من كُلِّ قطعةٍ يلبسونـها واقتادوهم إلى وادي السباع، وادٍ لا يـخلو فرسخٌ واحدٌ منه إلا ويتصارع على ترابه ذئبان أو ثلاثة، تتصارع على جُثَّةٍ لم يبق منها سوى عظامها النديَّة بالدم ونُتَف اللحم الـملتصقة عليهـا مـن بقـايا الافتراس، وادٍ لا يـمجُّ إلا العظـام والكسـور الحمراء.
هو جهنم الأرض التي يُعذَّب فيها سكان مينار، يُدفعُ بهم إليه وذلك بعـد تقسـيمهم إلى جـماعاتٍ يتنـاوب علـى دفعهـا الـجنود جـماعةً جماعة، لتشاهد الجماعة التالية الجماعة التي قبلها وهي تُدَقُّ بأسنَّة الأنياب وبرؤوس المخالب.

كـانوا يـدفعون بـهم جـماعات إلى الـوادي مـن خـلال باب الشـباك الـحديدي الـذي نصبه وزيـر الـملك طوقاً على الـوادي كي يستثمره كوسيلةٍ للتعذيب، وتنفيذ أحكام القتل في المحكومين.

كانت راوية تقف مقيّدةً في الـجماعة الرابعة التي تنتظر دورها بعد أن تشاهد لـحوم وعظام الـجماعات الثلاث، وقد تنازعتها السباع كخرقةٍ بين الأيدي تريد كلُّ يدٍ الظّفَرَ بها.

شَاهَدت الـجماعة الثالثة وهي بين الأنياب والـمخالب، منها ما بقي طريح التراب وقد نُتف لـحمه، ومنها ما قد أشبع لـحمه بطون صِغارها.

أتـى دور الـجماعة الرابعـة ليوقفـوهم طـابوراً مِلـؤُهُ الارتـجاف والذِّلَّـة، وحيث إن راوية هي الـمحكومة السابعة في ترتيب هذا الطابور الـمعدوم بالـخوف الـمهول، وجـدت نفسـها تتلفَّـتُ في روعٍ هالـها أكثـر مـمّا كانت عليه لـحظتها.

سمعت أحد الـجنود وهو يصيح بصوته الـمطليّ ببحةٍ شديدة:

ـ يكفي هـذا اليوم لقـد أتتنا تعليمات الـوزير بإرجـاء رمي الـمتبقي من الجماعات إلى ظهيرة الغد.

فدفعوها من قفاها وهي تسمعهم يتضاحكون على هَلَع أصابها، حيث كـاد ينطمس ضوء عينيها حين أيقنت بأن لـحمها وعظامها لـم تعد ببعيـدة مـن فَـكِّ السـبع، وذلـك سـاعة اشـتمامها لرائحـة دمـاء أهلـها وجماعتها آتيةً من فكّه الـمفتوح إلى أقصاه.

لم يجعلوا لهم حتّى أقلَّ ضوء من الأمل للهروب من حياة السفك، فما زالت ترى صورة السباع المتزاحمة حول الشباك الحديدي وبعضها يقضم الحديد بأنيابه طلباً للفريسة التي ستكون منهم.
أعادوهم إلى السجون فكانت رحمة الربِّ منقذة لهم، فقد مات ابن الملك صبيحة اليوم التالي بسبب أفعى اندسَّت في قميصه فلدغته، فلم يمضِ على لدغتها سوى وقت قصير حتى فارق الحياة، بعدها أَمَر الملك بإخلاء سبيلهم من أجل حزنه على ابنه.

***

وفي ليلة مبيتهم عُراة في السجون بعد أن انخطَّ لهم عمرٌ قد استحالوه عند وادي السباع، كان الجنود لا يتحرَّجُون من ركلهم والبصق عليهم، هذاغير لمسهم لأماكن حسَّاسة في أجسادهم.
كانت من بينهم امرأة مليحة ذات قوام لا يصبر عنه قلب رجل يراه، اقتتل عليها ستَّة من الجنود ليظفروا بها قبل أن تظفر بها سباع الوادي، حتى انتهت التضحيات من أجلها إلى موت خمسة منهم برمحٍ ذي رأسين أعدّه سادسهم للخلاص منهم، كي تصفو ساحتها له وحده، لكن ذلك الانتقام لم يدم، لأنها أعدّت له حجراً صلداً هشمت به جمجمته حين أراد أن يواقعها، ولمَّا سُمعت صرخته اندفع رهطٌ من الجند ليتركوها بعد ساعة وقد كُوِّمَت أوصالها وعظامها على حافة إحدى الطرق الشهيرة بالمسافرين.

***

لم تستغرب راوية البؤس المضاعف في حياتها، فما كان منها سوى أن عملت عند صاحب دكان لبيع الأقمشة تغزل وتخيط مقابل ثلاثة دراهم صدئةٍ تأخذها نهاية النهار، تُطعم بها أخاها وتسدُّ أقلَّ ما تحتاج حتى تضمن له حياة أقلَّ من الطبيعية وليست بالكريمة، حياةٌ محطّمةٌ بالحاجة والعَوَز، فآثار الحصبة التي صفعته تركت على بشرته حُفَراً عميقة، اعتنت به رغم أنه يُهيّجُ عبرتها ببكائه كلَّ ليلة، حيث إنه لا ينام إلا على كتفها، أشهرٌ مَضَت كانت أقسى من لهبٍ يُصلى عليه الحديد.

وبعد أن كَبِر عَمِلَ سَقَّاء أمام سور الملك، حيث يحمل الماء كي يسقي العابرين رجالاً ونساء، وهم يَجرُّون أغلالهم في دروب الشقاء، وذلك مقابل فلس واحد، وحين يعود يجدها عائدة قبله لتشتري ما ينقصها بما كسبته، كان تتأمَّلُهُ كيف حُرِمَ لذّة شبابه، دفعته الحياة والظروف إلى سَقَّاء تسلخه الشمس، ويلطمه البرد، ويشتمه الغبار، فلا يعرف من الملابس إلا أوسخها وأنتَنَها، هذا غير الجنود الذين اعترضوه مرَّاتٍ ومرَّات ليوسعوه ضرباً بلا سبب يذكر.

كانت تقاسمه العذاب وتشرب من أجله أقداحه لإنباته في وجه الحياة، أمضت الليالي تراقب ارتجاف ضوء القنديل المعلّق في السقف حين يطرد فيها البرد الدفء، فخلال ليالي الشتاء طَرَقَ طارقٌ

حَرَّكَ أكوام العذاب أكثر من ذي قبل، إنَّه اليوم الذي شَعَرَت بالأرض وهي تجترُّها من قدميها الحافيتين لتهوي فريسةً سهلةً لأحدهم، كان ذلك في ليلة صَمَّاء حين ارتفعت حرارة أخيها فمسَّتها الحاجة إلى مزيد من الماء، فالماء الذي لديها لا يكفي لاستخدامه في تخفيف الحرارة عنه، فاضطرَّت إلى الخروج ليلتها للاستنجاد بمن يسعفها ولو بقليل من الماء، هي ليلة انغمس القمر في بطن السماء ولم يعد يُرى، كانت نهايتها محترقة يكتنفها الدخان.

دقَّت الباب على أحدهم وبعد طَرَقَات ليست بالطويلة فُتح لها وإلا برجلٍ كَثِّ الشارب، ذي ذقنٍ صغيرةٍ، دائريّ الوجه، حاجباه رفيعان عريضان، أطال النظر بها لدرجة أنها تسأله الماء ولا يجيب، وحين أحسَّت أنه فطن لها فجأة دعاها للدخول لأخذ كفايتها من الماء، وبسبب اندفاعها لنجدة أخيها من لهب الحمَّى انطلقت داخلة إلى منزله باحثة عن الماء، فكان الثمن وقتها تلويث زهرتها، حيث انقضَّ عليها وَهَتَك سترها، وَعادت إلى فقرها تنزف دمعاً وندماً لتجد أخاها يتمتم من قبضة الحمَّى عليه.

بعد دخولها عليه بقليل سمعت وَقْعَ جرَّة عند الباب، ونداء رجل ينادي بخشونة:

- إليكِ الماء.

هي ليلة هرعت نجومها خلف ستارة الظلام وانقسم وجه القمر، لينقضي أكثر من نصف الليل، وبعد وَسَنٍ قليل فتحت عينيها المحاطتين بجنودٍ من الأهداب، عينان ذابلتان في حوض الأمل، نظرت إلى السقف، حيث نسيم الليل يلاعب قنديلها الذي خفت ضوؤه، ويغني قصب الخشب المجوّف كلّما انحدر الهواء داخله.

عادت لتضع رأسها على وسادتها المحشوّة بالرمل، والتي نحرت على قماشها المبلل عَرَقَ خوفها ودموعها الحمراء، وأحلامها الشفّافة، وآمالها المخضرّة، حاولت مغازلة النوم لكن النعاس يرفض أن يطفو فوق أجفانها، وحين طلع الفجر سكتت أنفاس أخيها، فطبعت قبلة حانية على جبينه ومسحت برؤوس أصابعها اليمنى على خدّه حتى توقّفت عند ذقنه، وهي تقول بهمس حزين:

ـ انهض، سيباركك الرب.

قد توقّف الدم عن الدوران في عروقه، وأغمضت أجفانه التي وهبها المرض لون السواد، ليموت دون أن يحدث في أنفاسه شيء من الشَّهَقات.

خَرَجَت من منزلها بوجه الفجيعة، نظرت إلى صفحة النور فجاءها خيال زوجها المتوفّى حينما كنت تطوِّق عنقه بذراعيها الدقيقين، لتطبع قبلةً هادئة على شفته السمراء، فدفقت أجفانها دموعها المرّة.

الفصل الثامن عشر:

نَهدٌ يَتَأبّطُ المَوت

حَلَّ الصباح آخر عُقدةٍ للظلام، وتَدَلّت خيوط النور من قرص الشمس لينقضي آخر يومٍ من أيام حدادها السوداء، كَسَرَت فيه آخر أعواد الحزن الصلبة، نهضت لتنظر إلى التجاعيد التي لثمت وجهها في مرآة صغيرة وُضِعَت على رفٍّ خشبيّ فَتّتته السنوات الطوال، زَحَفَ بصرها على بشرتها المكتئبة من وقع حوافر الفواجع عليها لترى دمعاً ملَّ حزن عينيها، كُلّ شيء انتهى بالنسبة لقلبها، ما سرقته الأيام لن تُرجعه الأحلام والآمال، فأيامها البيضاء لوّثها نقع الغدر والقهر في مينار.

تحرَّكت رؤوس أنامل يدها الأربع اليسرى على نعومة خدِّها الأيمن، لتنحرف إلى ذاكرتها صورة أخيها، حيث كانت آخر مرّة ضمَّته إلى خشب ضلوعها قبل أسابيع حين قتلته الحمّى، أُرهقتْ بعدها بالحزن

الأبديّ، تماماً كعجوزٍ تُلجئ رأس أخيها إلى صدرها، حتّى ألقوه في حِجْرها مقطوعاً، وتماماً كما سِيقَ أهلها في جمع من المحكومين إلى وادي السباع الذي لا يعود من سِيق إليه مقيّداً عارياً.

كانت فترة الحداد وقتاً لضبط خطّة الانتقام، وجعل الروح تتقلّب في قاع حقدها وضغينتها على ملك مينار الذي حكم على أهلها بالموت، فكان ذلك مُغذّياً انتقامها المتوقّد، فتحت باب المنزل برفق وخرجت بلا نعل حافية القدم تَدُوسُ نعومة الرمل وصلابة الحصى الصغير، ستتواطأ معها الظهيرة بلا شك، فالحداد أرهقها مليّاً.

خرجت باتجاه الجبل الذي يحرس مينار من الخلف، تحمل في صُرّة صغيرة معها بعض ملابس جديدة، فصعدت صخوره الفضيّة ليتداعى إلى سمعها خرير الماء من بين الصخور، ألمّ بها ما يشبه الخَدَر اللذيذ لبرودته، تبعت الصوت حتّى انعطف بها إلى جانب الجبل، صخرتان داخلتان في صلب الجبل يخرُّ الماء من بينهما فتحرّكت شهيتها للاستحمام.

تجرّدت من ملابسها مثلما تجرّدت من رحمات قلبها وشفقتها، ثمّ استوت تحت الماء تغتسل من كلِّ شيء إلا من شهوة الانتقام الفتيّة التي أمضت طَوال حدادها وهي تسقي زَقُّومها.

لم تمضِ طويلاً تحت كَرَم برودة الماء وهي تسمع غمغمة أرواح القتلى من جهة مينار، خَرَجت وكشفت للشمس رطوبة جسمها إلى

أن امتصَّتها بشعاعها، ثمّ حلّت صرّة الملابس وارتدتها، كلّ ذلك تمّ بقرب الصخرتين اللتين يفرّقهما انهمار الماء، لتندرج عائدة من طريق غير طريق الذهاب، وتذوب في تفاصيل حياة البشر اليوميّة امرأة عاديّة. وعندما زَحَفَ المساء على عتبة بابها الطينيّة، كانت قد وصلت إليه عائدة تحمل رغيفاً صغيراً من الخبز، داخلةً في ظلمةٍ بُسِطت على ممرّ بيتها الصغير، لتضع الرغيف جانباً وتهمّ بنزع ملابسها، فَهَفّ إلى سمعها ذِكرُ أخيها وأنين زوجها فدكّها بكاء مرير، لتغمض عينين تجرّان دمعهما على ذراعين أبيضين نحيلين.

لم ترفع رأسها عن ذراعيها إلا حين امتطى الفجر ظهر الظلام، فكّت دموعاً ترقرقت لزمنٍ مضى، وأعدَّت سِكّيناً ذات انعطاف نصف بيضويّ، وخاطت لها حزاماً من الجلد عرضه قيد الأنملتين ذا غمدٍ شبه مناسب لنصلها لتثبّته تحت نهدها الأيمن، فكلُّ ظنّها أن ما فات يُصحّح ولو برشق السّكين.

خَرَجَت من بيتها الطيني الذي هَدَمَت الأمطار نصفه الأيمن ونسفت جزءاً من نصفه الأيسر، تمشي بأقلّ من المهل متأبِّطة لهيب الانتقام، فانعطفت نحو شارع ضيّق تتقابل عليه دكاكين الورّاقين والبقّالين، لتعبر من أمام دكان بائع التبغ ذي الذقن المصبوغة بالحنّاء، فقفزت عيناه الصغيرتان تراقبانها وذلك أثناء إدارته لأوراق التبغ بين أصابعه.

أشاعت بصرها في كلّ اتجاه، لم تتغيّر مينار أبداً، فَكُلّ ما فيها أجسامٌ منكّسة على أعواد، اتَّسعت عيناها لجسم مربوط بحبلٍ على جذع رمح يُطاف به في الأسواق حتّى مرّوا به على ذويه ليروه، ثم أسلموه لوادي الذئاب، ليصرخ أحدهم من بين الجموع التي تتبعهم وهو يشدّ شعر رأسه:

ـ آهٍ مينار فكلّ جدرانكِ دماء.

وانطرح يبكي ويأكل التراب.

ثمّ التفتت في جهة أخرى وإذا بجماعة من الجلاوزة بمنتهى الوحشيّة والكراهية، تسحلُ امرأة كبيرة وتعرّيها وتلاحقها بالركل والبصق على كُلّ أعضائها، ليأتي عن كثبٍ صوت شيخٍ ضرير:

ـ يا لخيبة الأمل الكبيرة.

انتبهت لوَقعِ حوافرَ يدبُّ إلى سمعها، التفتت بعينيها دون رأسها، إنه وزير الملك يتبعه رهط من الجند وهو يمشط الشوارع والأسواق ويضرب بعصا أوامر الملك من يشاء، فانفتحت شهيتها لقتله، تماماً كالجائع دهراً.

فالإغواء هو السبيل الأمثل لاستدراجه إلى حتفه العميق، فانتظرت حتّى اقترب صوت حوافر الخيل، لتنطرح أمامه باكية شاكية له فقرها وَعَوَزها، وبنبرة بدت للوزير أنها صادقة:

ـ الفقر أدمى سنواتي، أرملة وليس لي عيال، ألا تـهبني أيَّ شيء وبدون أيّ ثمن.

سكت لحظة وَحَدَّق فيها بفضول، فأردفت:

ـ ليس من أجل جوعي بل من أجل هيامي بك وحبّي القديم لك.

أهاج كلامها بداخله ينابيع الميول والرّقة فابتسمت شفته وقال لها وهو يساوي حبل الرسن بين يديه:

ـ وهل أحببتني منذ زمن؟!

كفّت بباطن أنملتها السبّابة دمعتها وقالت له:

ـ أنت وزير وأنا امرأة فقيرة، فكان يأسي منك أقرب من أملي بلقائك.

صَمَت قليلاً وَتَلَفّت في الجند الواقفين خلفه فأتاها صوته سائلاً:

ـ ولكنكِ من المتسوّلين فكيف استطاع قلبك التفكير في وزير مثلي؟!

ـ الفقر يا سيد يحرّضك على الحب أحياناً من بشرٍ لا يعرف للفقر طعماً.

حاصرها بنظراته قائلاً:

ـ وإن قلت لكِ إنني لا أرغب بمحبَّة كهذه.

فقالت له بنغمة هائمة:

ـ ولكنني أحبَّك بما في مينار من الهواء والحصى.

ـ وإلى أيّ مدى وإلى أيّ حدود؟

فأجابته بنبرة صارمة:

ـ حتّى حدود القتل.

أحسّت بعدها أنه وقع في الحبل الذي سيجرّه إلى نهايته حتماً، لتسمعه يقول لمساعده:

ـ أعطوها ما تريد من طعام وجهّزوا لها مكان الضيافة هذه الليلة.

فابتسمت ابتسامة المنتصر.

وحينما كاد النور يقطر من ثقبٍ في ظهر الظلام، وَقَفت أمامه تحمل زوّادة خضراء تُعلِّقُ حبلها فوق كتفها اليسرى، فسألها:

ـ ماذا تحملين لنا في زوَّادتك هذه؟

ـ بعض الرُّقى للمحبّين المتعبين.

بَدَت أسنانه ضاحكة، فَفَرك يديه وسألها:

ـ فقط؟

نَظَرت إليه قائلة:

ـ أحمل فيها أيضاً كِسَراً من أعواد الفجر.

ـ ولمن هذه الأعواد؟

رفعت رأسها بابتسامة مخدَّرة:

ـ للحالمين أمثالنا.

فَغَمَزها بعينه اليمنى وقام عن كرسيه مُقبلاً عليها ليدير على عنقها النحيلة سلسالاً من الذهب المذاب في اللجين، فابتسمت بأنوثة طافحة نقلتها عينان هائمتان من خلف لثامٍ طاغٍ في الفتنة.

كانت بيده كأس خمرٍ طويلة أفرغها في جوفه وأخذ يدها بيديه وقال بشغف:

ـ ستُضاء مينار هذه الليلة بك و . . . .

استوقفته قبل أن يواصل قائلة:

ـ ألا تَصْرِف عَنّا هؤلاء الجند كي ننعم بمفردنا؟

ازداد تصديقه لها فرفع رأسه في الجند ضارباً كفّه اليمنى باليسرى طالباً منهم الذهاب، ثمّ نظر إلى الخدم المطأطئي الرؤوس وأمرهم بالانصراف خلف الجند، فاختليا.

التصق بوجهها لتدير هي يديها من خلفه وتقرّبه نحوها أكثر، وبينما هو يحاول حَلَّ لثامها دَسَّت يدها ببطء وسحبت السكين من تحت نهدها ودفنت نصلها الحادّ فوق عانته، فتوقّفت أجفانه عن الحركة وانطلق خيطٌ من الدم على ذقنه الصغير، وتدفّق من مكان الطعنة كصنبور فُتح لنهايته.

ارتخت يداه عن لثامها فسقطتا على كتفيها ثمّ انزلقتا على نهديها، فخرّ جسمه الطويل على ركبتيه، وصوت تألّمه يشتدّ امتزاجه مع لون الدم ورائحته، حاول أن ينظر إلى النصل المغموس لكنّ رأسه عجز عن الانحناء، فأخذت ذقنه في كفّها ورفعت رأسه إليها وهي تقول:

ـ هذا الحب سيُغنيك كثيراً.

جاهد يحاول الكلام لكنّ تدفُّق الدم أثقل لسانه وفكّيه، فسحبت النصل ودفنته في نحره ليسقط على ظهره، تلفّتت في المكان ثمّ انتزعت السكين وَطَهّرتها وذلك بمسحها بردائه الأزرق.
قلّبت بصرها على النصل وقالت بلغة منتصرة:
ـ بقيت أرواحٌ ستُلتقط.
نَهَضَت مُعيدةً السكين مكانها ومساويةً ثيابها واتجهت نحو ركن اتضح لها أنه خُصّص لزينته، وَجَدَت قوارير صغيرة غُمست بها أعشاب ذات روائح عطريَّة جاذبة للروح، سحبت زهرة منها واشتمّتها وَدَعَكت بها عنقها وجيدها، واتّجهت للباب وحين وصلت إليه فتحته فتحةً بالكاد يخرج منها عودها وهي تقول بصوتٍ واثقٍ عالٍ:
ـ سأعود للقائك في الغد.
فوقف الجند صَفَّين متقابلين لتجد طريقها من بينهم، وقبل أن تتجاوز آخر جنديّ يقف عن يمينها قالت كالمتذكّرة:
ـ نسيت.
فالتفتت رؤوس الجند بأنظارٍ اشتدّ تركيزها، وشفتها تقول:
ـ سيّدي الوزير طلب منّي إعلامكم بأنَّه سيرتاح إلى قُبيل العصر.
فهزَّ كل جنديّ رأسه علامةً بالعلم.

الفصل التاسع عشر:

سُفُنُ الفَجَائِع

صَبَغَ النور صبغته الصفراء على حائط غرفة الملك بعد أن تسلّل عبر نافذته المفتوحة طَوال الليل، امتلأت الغرفة بالضوء حتى شَعَر بالانزعاج فأطلق جفنيه عن عينيه الواسعتين، ليشاهد اصفرار الغرفة بالكامل، شيء من النعاس ما بَرِحَ أطراف أجفانه بعد.

هزَّ بأنامله الأربع زوجته قائلاً:

ـ انهضي، إنّه الصباح.

تَمَلْملت على فراشها قليلاً ثم قعدت فيما هو يخطو بسكرةٍ نحو بركته التي خَصّصها لمتعه البعيدة عن هموم البطش في مينار.

بعد وقت خَرَجَ من البركة جسماً متشبّعاً بالماء وآخذاً وقته في التجفيف والاستعداد بارتداء حلّته للنزول إلى قاعة الإفطار، لكنّه هذه

المرّة قرّر أن يتناول إفطاره في شرفة القصر التي تقع تحت غرفته تماماً.

وفي الشرفة التقط كأس الخمر وَشَربَ نصفه على عجل ثمّ أمر الخدم بتجهيز مجلس الحكم قبل نزوله من غرفته، وفور التقاطه لحبّة تفاحة حمراء وضعها بين أسنانه، ارتطم بقفاه صوت المنادي:

ـ مولاي، مولاي.

التفت بغضب إليه وحين وصل إليه جَثا على ركبتيه من شدَّة العدو، وأخذ يحاول تمكين رئتيه من أخذ النفس ثم قال:

ـ الوزير يا مولاي، الوزير.

فصفعه الملك صفعة طرحته أرضاً وصرخ به:

ـ ألا تتكلّم؟!

رفع جسمه الطريح وهو يفرك خدّه مجيباً:

ـ الوزير، وجدناه مقتولاً يا سيدي في قصره.

احمرّت عينا الملك غَضَباً وقال بتمتمة:

ـ قُتل، الوزير قُتل.

وأدار رأسه في الواقفين حوله من الجند والحاشية وقال بنغمة مستعجلة:

ـ خذوني إلى هناك.

فتحرّك موكبه تاركاً آثار الغبار خلفه والتي تشي بعجلة الملك في الاطلاع على الحادثة.

دخلوا إلى القصر ليجدوا جنود الوزير قد أحاطوا بالمكان جيّداً بما فيه جُثّة الوزير المطروحة فوق دمائها، وَقَفت العربة التي تُقلّ الملك أمام بوّابة القصر الداخليّة فنزل على سرعة منه ليصعدوا خلفه إلى غرفة الوزير، فرأى جثّته تسبح في الدم، عَضّ شفته السفلى وأخذ يفتل شاربه الأبيض بتوتّر وربكة:

ـ يا للموت البائس!

وبعد صمت خاطب جنده بصوت بدا وكأنّه سيحقِّقُ بشدّة في قضيّة قتل الوزير:

ـ من كان عنده البارحة؟

أتى صوت أحدهم تصحبه الرجفة:

ـ امرأة من سكان المدينة.

ـ وما أدراك؟

ـ كُنّا معه أثناء جولته فاعترضته وشرحت له عشقها له و . . .

فأبطأ في الكلام ليصرخ به الملك:

ـ أكمل ثم ماذا؟

ـ وكما ظهر لنا أنَّه رقَّ لها حُبّاً فدعاها إلى قصره البارحة.

تآكل المكان بالصمت الطويل ففرك الملك كفّيه قائلاً:

ـ حُزُّوا رأسه وأحضروه إلى قصري.

قال رئيس الحرس بتمتمة:

ـ وجثمانه يا مولاي؟

ـ لُفّوه واحملوه في عربته واتبعونا به.

استنكر الجند أمره، فالجميع يهاب الوزير حيّاً فلم يجرؤ أحد على حزّ رأسه وفصله عن جثمانه خشية العقوبة المفاجئة من الملك الذي لا يُضمن أمانه، فكانت يد رئيس الحرس أجرأهم على سَلّ النصل وحَزّ الرأس.

***

وفي مجلس الملك وُضِع رأس الوزير على مائدة الخمر الصغيرة، حيث أُجلس بين قِنّينتين بمساعدة لفافةٍ سوداء حتى لا ينقلب ويقع، لتطلَّ من خلفه أعناق أباريق الخمر، طاولة ليست بالرفيعة ولا بالوضيعة، ثم قَدِمَ أحد الخدم إلى الملك ليراه وهو عاقدٌ أصابع يديه من خلفه ومُعطٍ المجلس ظهره يتأمّل رأس نَمرٍ زُيّن به مجلسه وقال له بنبرة ذليلة:

ـ الوزير في انتظارك مولاي.

فرقع أَصابعه واستدار مُتّجهاً نحو الرأس الموضوعة بخُطاً هادئة بطيئة وَسَطَ انكسار الجند والحرس وانخراطهم في مذلّتهم، فقبض بيمينه شعر الرأس وانحنى إليه قائلاً:

ـ أهكذا تختار نهايتك؟! أبهذه الطريقة تُختمُ حياة وزرائي؟!
صَمَت قليلاً ثم تابع:
ـ ألم أنبهك مِراراً عن تصديق الغاويات؟ كنت أعلم أنك لن تعرف قيمة وزارتك لي.
كانت قطرات الدماء تسقط قليلة من فمه ومن أنفه وكأنَّه يجيب الملك بالتصديق، فتابع حديثه للرأس:
ـ لو افتضح أمرك وأنت حيّ لصلبتك حيّاً.
سكت الملك وأخذ ينظر في عينه البيضاء ثم أكمل سائلاً:
ـ هل جرّبت شرب الدماء؟
نظر أكثر في عيني الوزير وهما خلف أهداب رطبة بالدم، فصاح بالجند:
ـ اسكبوا الدم حتّى تحمرّ شفتاه.
فجيء بقدح مملوء بالدم وأريق من حلقه لينسكب على رقبته على المائدة ثمّ على الأرض حتّى أريق القدح بالكامل.
نفض الملك كفّيه ممّا تبقّى من شعر الرأس ونظر إلى نائب الوزير ذي الجسم المتين القصير، والوجه الدائري الممتلئ، والعينين المدفونتين، والبطن الزائدة، واللابس رداءً مُطرّزاً بخيوط الذهب، وَنَادَاه بغضبٍ شديد:
ـ أنت.

هزّ النائب رأسه مجيباً، فسأله الملك:

ـ أين كانت مشورتك ونهيك عنه قبل أن يقع في غبائه المرّ؟

ـ مـ مـ مـ مولاي حاولت منعه عن مثل هذه المتع لكنّه أبى.

أشار الملك بسرعة إلى سيّافه الضخم الطويل ذي البشرة السوداء فأمره:

ـ اضرب عنقه.

فطار رأس النائب خلف مائدة الخمر، ليقترب وقتها رئيس الحرس من الملك سائلاً:

ـ مولاي، أتأمر بجسد الوزير قبل أن ينتن أكثر من ذلك؟

ابتسم ابتسامة هازئة وأمره:

ـ صُبُّوا عليه دماً وأضرموا النار فيه.

فَوُضِع الرأس بجانب الجثمان في حفرة بعيدة عن مينار ليغيب في لباس اللهب، فكُسفت الشمس في ذاك النهار.

ثمّ أمر بالبحث عن القاتلة ليقوم الجند بتنقيب الأزقة وتقليب الشوارع بحثاً عنها.

الفصل العشرون:

وَقعُ خَطَواتِ الـمَوت

انطلقت راوية في طرقات مينار الضيّقة بعد أن أطفأت جزءاً من نار انتقامها حين قتلت وزير الملك، انطلقت هاربة من بين جذوع النخيل، بعد أن تفرّقت في صدرها قطعان الثأر، مع أن لهيبه لم يبرد بعد، لهيبٌ صنعه لها قاع مظلمٌ مؤلّف من الخوف والقلق.

وحين تجاوزت حدود النخيل ووطئت الصحراء صادفت راعِياً أغبر، متوسّط القامة، طويل الوجه حليق الذقن والشارب، له عينان صغيرتان جمّلهما بالإثمد، وحاجباه أشقران طويلان، يُغطّي رأسه بعمامة سوداء، تُلازم نُطقه تأتأة سريعة يصاحبها شيء من اللعاب، كان يحمل فوق بعيره دقيق الحنطة وشيئاً من النخالة، يلبس ثوباً ذا أكمامٍ قصيرة تفضح نصف ذراعه ذات الشعر القليل، استوقفته وَشَدَّت صدر ثوبه نحوها وهي تقول بفخر:

ـ أجهزتُ على الوزير وهم الآن يبحثون عنّي مؤكّداً.
سَحَب الراعي خطام بعيره لأسفل وسألها باستغراب:
ـ وزير الملك، قتلتهِ؟!
هزّت رأسها مجيبة:
ـ نعم قتلته.
لمس بإبهامه وسبّابته والوسطى ذقنه الطويلة قائلاً:
ـ أبكِ جِنّ يا امرأة؟!
أجابت بحماس مُكرّرة:
ـ قلت لك قتلته، قتلته، قتلته، والآن أسألك أن تأخذني بداخل ما يحمله بعيرك هذا إلى فناء قصر رئيس الحرس، بحجّة أنني جارية ابتيعت أو أُهدِيَت له.
ارتفع حاجباه الطويلان الأشقران وقال:
ـ لا أخفي عنك أنني فرحت بقتل هذا السفّاك.
صَمَت قليلاً وتابع:
ـ لكن لِمَ لا أساعدك في الهرب إلى خارج المدينة؟!
أطلقت صدر ثوبه من يديها قائلة:
ـ لا، ليس بعد، حتّى أقتل فيهم بالقدر الذي يُشبعُ جوع ثأري.

فالتقط من الأرض حوله لوحاً صخريّاً يقارب طول الذراع، كتب عليه بقطعة من حصى الكبريت بصيغة الوزراء رسالة مُزوّرةً إلى رئيس الحرس، كتب نصّها:

من وزير مدينة الميس إلى رئيس حرس مدينة مينار، إن لصداقتكم أثراً بالغاً علينا، وممّا يبهج سرائرنا هو أن تقبلوا هديتنا هذه، والتي تواضعنا في إرسالها مع راعٍ من رعاتنا من أجل أن يكون الأمر خصوصيّةً بيننا وبينكم.

سنكون في أتمّ الاطمئنان حين يصلنا الراعي ليخبرنا عن وصول الهديّة لكم.

صاحبكم ووادّكم/ وزير مدينة الميس.

ثم قام بلفّها في قطعة من الحرير كانت ضمن متاعه، فانفرجت ملامح راوية عن ضمان أكبر للوصول إلى رئيس الحرس، ثمّ حَشَرَت نحولها في سدو بعيره، وذلك بعد أن أعطاها الأمان وأن يتجاوز بها حدود الحراسات المحيطة بالقصر، لتتكوّر في السدو هاربةً بمغامرة الراعي باتجاه بوّابة قصر رئيس الحرس دون أن تشعر بها أيُّ نفسٍ إنسيّة أو جنيّة، كأنّ رائحة الموت فَصِحةٌ من تحت نهدها، معقودةٌ نتائجها في مقبضٍ تُحرّضه كفٌّ جريئة على رسم النهايات لأنفسٍ ارتضت كؤوس الموت لأفواهٍ جائعة، فلذّة القتل تَعْتَمِلُ في قلبها بحرارة، لذلك لم

تكن التصفية مُحتّمةً ترتيبهم أمامها، فالنصل هو الآكل الشابع الأول في الأمر.

***

وعند بوّابة القصر أَوقف الراعي البعير واستدارت حوله دائرة من الجند ليسأله أحدهم بصوت غاضب:

ـ ما الذي أوقفك هنا؟!

أجاب وهو يَفكّ السدو ويُنزل المرأة:

ـ الجارية هذه هديّة أمرني وزير مدينة الميس بأن أوصلها للرئيس في أقرب وقت، فهلا ساعدتموني على ذلك.

تَعَاقَبت الأعين على المرأة حتى نَزَلت تماماً وهي تتظاهر بشعور الجواري وخجلهنّ، تدحرجت الأعين من أعلى جبهتها حتّى وصلت إلى أَصابع قدميها، فناول الراعي قطعة اللوح لكبير الجند ليفتحها ويمرّ ببصره عليها سريعاً، فقال بصوتٍ مُصدّق:

ـ لا داعي لإشغال الرئيس الآن، فتّشوها ثم أوكلوا إليها مهامها فوراً وفي الغد سأبلغه بوصولها.

ثم نظر إلى الراعي وقال له:

ـ أخبر وزير مدينة الميس أن الرئيس يشكره على هديّته وأنّه في القريب سيتشرّف بزيارته.

هزّ الراعي رأسه هزّات سريعة متتابعة تنبئ عن خوفه من افتضاح الأمر، فجرّ خطام بعيره غائصاً في الصحراء.

فتّشها أحد الجند فبادرت بلثم عنقه لتلفحه سكرة جنّبت يده مخبأ السّكين، ثم أوكل لها مهمة الاهتمام بالرئيس من حيث دعكه وتقشير جلده كما يحب، وحين أدخلوها لتبدأ عملها وَجَدتهُ متخدِّراً مُمدّداً بين جواريه فوق سريرٍ قوائمه من العاج الغليظ، وَهُنّ يغسلن ويدعكن ظهره الذي تملأ صفحته قُطعَان الوَشم، فانتهزت اللحظة وانغمست مَعَهُنّ، فمضت تمسح جسمه بالحرير وهو مُستلقٍ على بطنه، مُراقبةً البسمات التي تتقافز فوق شفتيه، بعد وقت قليل انتقل بهنّ إلى مكان آخر من مخدعه الخاص، لتكمل أيديهنّ عملها بدعك أكتافه العريضة بمشاركة ماء الورد الذي مُلئت به بركته، تَسلَّل خمولٌ شهيّ إلى جسمه بينما راحت هي تُغنّي له بصوتٍ التحفته الشجون، لتقترب شفتاها من شحمة أذنه وتقول له بصوتٍ خفيض:

- لِمَ لا تصرفهنّ كي أنعم بك؟!

وَجَدَ صوتها ثغرةً في جدار روحه فأَمَرَ بقيَّة الجواري بالانصراف وبقائها وحدها تكمل عملها، وفور اطمئنانها للإجهاز عليه رفعت صوتها أكثر بنغمٍ طويلٍ آسر، لتبعد يدها اليسرى عن كتفه اليسرى مُكملة بيمناها الدعك على رقبته باتّجاه رأسه، لتُدخِل يسراها تحت ردائها مُتحسّسة الطريق تحت نهدها الأيمن لتسحب نصل الانتقام

والتشفّي وتضعه جانباً وهو في قبضتها، ليُفاجئها بسؤاله وهو يرخي رأسه على حافة البركة:

ـ ما بال صوتكِ هدأ عن الغناء؟ أكملي.

فانتهزت فرصة اتكاء رأسه على حافة البركة لتُسْكِت فمه بكفّها اليمنى مُعطيةً يسراها القوّة بدفع النصل بِكُلّ انتقام بين رقبته وترقوته، كان صراخه ضائعاً بين فمه المسدود بكفّها وبين العودة إلى رئتيه.

أسرّت له وهو ينازع الموت بجسمٍ يرتعد من أطرافه إلى أطرافه، والدم يَتَدَفّق من رقبته وترقوته وبعض قطعه ذات الحُمرة الداكنة تلطم كفّها المتصدّية لصراخه:

ـ أطعم الموت لذيذ؟

انتزعت بعدها النصل انتزاعاً شديداً مبعدة يدها عن فمه ومخاطبة القطع الداكنة على كفّها:

ـ لم تُجبني، أطعم الموت لذيذ؟

امتزج ماء البركة بلون الدم ورائحته، فدفعت يديه عن حدود البركة لتغوص جثّته إلى القاع، ثمّ قامت بدعك النصل بالماء حتّى طهر من الدم، وغسلت يديها من كلّ أثرٍ يفضح انتقامها وأعادته إلى غمده تحت نهدها المتآمر معها، فاستدارت نحو الباب دون أن تتنبّه جيداً لبقع الدم الصغيرة التي طُبعت أسفل ردائها.

تـجاوزت بعدها الـممرَّ الطويـل الـمؤدي إلى الـخارج، ليستوقفها أحـد الـحرس بعد أن فَطِنَ لبُقَعِ الدم الـحارّة على ردائها ليسألـها بثقة:

ـ أأنتِ بخير؟

رفعت وجهها في وجهه باستهتار لكنّ ربكة لاحت على ملامـحها، ثـم سألـها بـحيلة:

ـ أأنتِ بخير؟ فبقع الدم هذه أخافتني عليكِ.

انقبض قلبها من قوله فشبكت أصابع يديها وهي تقول:

ـ وقعت على ركبتي وأنا نازلة من سلم القصر قبل ساعات، و . . .

قاطعها آمراً الجنود:

ـ اقبضوا عليها.

فأحاطت بـها الأيـدي والأسنّة، فخطـا نـحوها بـخُطاً واثقـة ليسـحب خنجراً قصير النصل ويضع عرضه على وريدها وهو يفاوضها:

ـ أتـخبرينني بقصّة هذا الدم أم أغمس هذا في وريدك؟

فضغط برأس الـخنجر ضغطةً رقيقة وهو يطلب إجابتها بصرامة:

ـ من أين هذا الدم تكلَّمي؟

ـ قلت لـك مـن جـروح أصـابت ركبـتيّ حـين وقعـت مـن سـلم القصـر، لـماذا لا تريد تصديقي؟!

لـم يكـن كلامهـا مُقنعـاً لـه البتة فشـدّها مـن ذراعهـا سـائراً بـهـا إلى غرفـة الـرئيس، وهـي تـحاول دفعـه عنهـا فانتبهـت لاقترابـه بـهـا إلى الغرفـة

فجاهدت دفع يدها بقوّةٍ تحت نهدها ممزّقةً رداءها، فاستلّت النصل وأودعته في أعلى ظهره لتدوي صرخته في الممرّات، فأمر كبير الحرس بإيقاع حكمه عليها فقذفوها من أعلى الجبل، فقيل إنّه لم يُسمع لها أيّ صراخ.

الفصل الحادي والعشرون:

مَجْدٌ أَحْمَر

ذات صباحٍ مُطعَّمٍ بالأتربة التي لقحتها رياح آخر الليل، نهضت خندريس حيث أيقظها الحبُّ وَطَلب الوصل من عاشقٍ قديم، بشرتها الجافّة، عيناها الغائرتان، التقوّس بسلسلة ظهرها، شفتها البيضاء من وقع الشوق، تركت فراشها بعد أن دعكت عينيها بظهر يديها، ثم خَرَجَت من كهفها وانقلبت في أبشع صورها، وأنتن روائحها.

انتصفت الأرض تدوس الحشيش بأقدام شبيهة بأقدام الوَزَغ، نحو قبور منسيّة في قلب الصحراء خلف مينار، بمسيرة يوم ونصف اليوم، تجاوزت مساكن العفاريت يمينها، المقيمين في بئر نَضَبَ ماؤها، وَقُذِفَ بدلوها وحبالها في قعرها البعيد، مُلحقة بالحصى والتراب.

موطئ سبتها بعد مسير طويل وَقَفَ بها على رقيم مُبعثر، رفاتٌ فوقه حجرٌ سوّدته السنون، وابتسمت ابتسامة عاشقة لعاشق، ورفعت

ذراعيها للسماء رامية وجهها للقبر، أطبقت أجفانها الرمادية على عينين زرقاوين مرعبتين، لتستدير على القبر أعاصير ذات أصوات كالطنين، فانفرج القبر عن رجل مربع الوجه، غير حليق الذقن، قصير الشارب، منتوف الأجفان، متوسّط الطول.

فانقلبت في صورةٍ فاتنة: تلبس قميصاً أبيضَ، وفي عنقها عقد من الجواهر الصغيرة يصل إلى مفرق نهديها وتحيط بأصابعها اليسرى خواتم حمراء جَذّابة، شعرها معقود بربطة عريضة من ريش النسر، نظرت إليه بشغف هامسة:

ـ إليَّ، إليَّ.

ليفتح عينه على بصر حادٍّ يرسل رسائل الحنين، ضَمَّ ركبتيه وَنَهَضَ مُزيحاً عن جسده التراب وبقايا الكفن المنزلق عنه، بَرَزَ صدره العريض، وعنقه الطويلة ذات الأوردة البارزة إلى جمجمته، وناداها برقّة ماطّاً آخر حروف اسمها:

ـ خندريس.

قالت له بشفةٍ كحُمرة الدم، بعد ابتسامة كأنّها ومضة شمس:

ـ اخترتك من بين الأحياء والأموات هذا النهار.

ليُدير لها ملامحه المُشتاقة، مُتجاوزاً لحده وصاعداً شفير القبر نحوها.

وغير بعيد عَبَرت عجوزٌ ذات أثواب سوداء، وشعر أبيض تموَّجت فيه شعرتان سوداوان، ووجهٌ طويلٌ ثقيل التجاعيد، تسوط ثوراً أقرنَ أبيضَ، يجرّ عربتها الصغيرة نحو الشمس، انتبهت للقائهما عند شفير القبر المفتوح، ويد خندريس ممدودة إليه، شدّت لجام الثور بقوّة حتّى غاصت حوافره في الأرض، راقبت منظرهما غير بعيدة، لتُدير عَرَبَتها باتجاههما، وهي تردّد بغضب:

ـ خنتني حيّاً وها أنت تخونني بعد موتك لا وصلتك الرحمات.

دَنا من سمعهما وقع الحوافر، وسير العجلات، لكنهما لم يُعيرا أي حرص، بقدر انهماكهما، وما أن كادا يلتصقان، حتى فرّق جلديهما سهمٌ ذو ريشٍ ملوّنٍ في ذيله، فافترقا كالمنزوعين بعضهما عن بعض، منفجعين من ضحكات العجوز وهي تعيد القوس الكبير جانبها، وتشتمه:

ـ قبل خمسين عاماً من الآن قتلتك جزاء خيانتك في نهارٍ أغبر، وها أنت تقترف جريمتك بعد موتك الذي لم يشفِني.

ـ من أنتِ يا شمطاء؟ (قالت خندريس بغضب)

ـ أنا.

ومطّت شفتيها على آخر حرف وصمتت.

ـ أولجتِ نفسك في أمرٍ لا يُحمد آخره يا كثيرة السنوات.

اتكأت على عصاها نازلة من عربتها وبصرها لم يفارقه وهو يدير نصف كفنه حول سوءته متقهقراً، وأشارت بسبّابتها إليه:

ـ عُد إلى موتك

ـ . . . .

ـ أُقسم أنك أرويت قلبي بخياناتك التي لحقتني حتّى بعد موتك.

وَضَرَبت عَجُز ثورها وانطلق نحوه ونطحه بقرنه مُحدثاً ثغرةً كبيرة في نحره، وَرَادّه إلى لحده، لتتراجع خندريس بينما الثور فوق القبر يهدمه بحوافره، ويقذف الصخور عليه بقرنيه.

نَهَرت خندريس العجوز بقوّة ودمعها يشقّ طريقه على خدّيها:

ـ مُري ثوركِ ليبتعد.

رفعت يديها مجيبة:

ـ لاا ا ا ا، الخائنون لا بدّ أن يُدفنوا.

ـ قلت لك مُريه بالابتعاد.

وَصَرّت أسنانها، وأمرت الرياح فهاجت ودفعت العجوز وثورها نحو النهر، ثمّ أمرت القبر لينفتح مرّة أخرى، ليتبعها مُهرولاً في أكفانه.

***

وبقرب كهفها أمسى ينضح عَرقاً بسبب قُبلتها السابعة والأخيرة، وذلك عندما مسحت الشمس ما تبقّى من الظلام، يتذكّر جيداً حديثها عن مجدها الأحمر في تعذيب عشّاقها.

تركته ينام في غرفةٍ من الطين صفراء، تقابل الكهف تماماً، تنفذ الأغبرة إليها من نافذتها ذات البرواز الخشبي، ليصحو مُصغياً إلى حفيف النخل ومزمار راعية أغنام دأبت العزف كُلّ صباح، فنهض من فراشه وأطلّ على كهفها فانغمست نفسه في بريقها السحريّ، حيث رآها نائمة كهرّة، شعرها الحالك الطويل على مخدّتها العهنيّة العريضة، ترتدي قميصاً لؤلئيّاً مقدود الأكمام طوله إلى ركبتيها، وعند رأسها إناؤها الفضيّ الذي تحمله أينما ذَهَبت، ويقف خلفها تمثالٌ رخاميٌّ عتيق.

استدار ليخرج فنادته بصوتٍ نائمٍ ناعم:

ـ بحقّ الرب لا تذهب.

عَجِب منها فسألها بشجن:

ـ أصحوتِ على وقع نظراتي؟

استوت على فراشها المصنوع من وَرَق الشجر، وطلبت منه أن يَخْرُجا للنهر معاً:

ـ ما رأيك أن نغدق على أنفاسنا من هواء النهار؟

ـ لكِ ذلك.

فانطلقا حتّى وصلا النهر، وأمسكها من ساعدها الأيمن النحيل:

ـ لنغطس معاً.

هزّت رأسها كمعنىً للموافقة، فنزلا في الماء، وحين أخرج رأسه ليأخذ أنفاسه، تلفّت في الصمت الملتفّ على النهر، ثم أدار نظره في الماء فلم يجدها، فانتبه حين خرجت من طرف النهر، لتجلس بجانبه امرأة أخرى: متجعّدة الساقين، مترهّلة البطن، متهدّلة النهدين.

اندفع نحوها ليقول لها بخوف:

ـ ماذا حصل لكِ؟ ألا تشعرين ما بك؟

فطلبت منه بغرور:

ـ انظر إلى نفسك في الماء.

فأطلّ بسرعة في صفحة النهر ليرى وجهه المتجعّد المرتخي، وبشرته السمراء الداكنة، وأنفه الكبير ذا المنخرين الواسعين، فدفعها بكتفها راكضاً نحو غرفته المقفلة، فضربها بكتفه مُكرّراً لينِدّ الغبار وتسقط أعشاش العصافير من سقفها، حتى انخلع الباب، فقصد فراشها باكياً، لتفجعه جثّة رجلٍ هزيلٍ، عليه لباس رثّ، وجمجمته مشطورة، وعلى لحييه بقايا لحيته الحمراء.

دَبّ الهلع في جلده وهو يخرج بظهره، وقبل أن يبتعد، مسكته الجثّة من ساعده فصاح بحرقة:

ـ لا!!!!!!!

فنفثت في وجهه نَفَساً ألهب بشرته، وعاد كما كان، وانقلبت الجثّة إلى خندريس، فتوقّفت عيناه فيها، ليقع في إغماءة طويلة.

عند العصر كانت قد أضجعته عند حافّة النهر، ونزلت تستحم، فانزلقت قطرة من الندى وَسَقَطت على جفنه الأيمن ليصحو وبحرص دقيق فَتَحَ عينيه، وَنَهَضَ مُستنداً على كوعيه، رافعاً رأسه ليبقى متأمّلاً جسمها المرمريّ، فاستقام واقفاً واقتطف تفّاحة من الشجرة التي كان تحتها، وأقبل عليها مبهوراً.

فطنت للشوق في عينيه المنجذبتين لوهجها، لتأخذ في الاستحمام بسرعة قبل أن يصل، ثمّ التقطت أوراق شجرٍ طويلة وَسَتَرت بها سوءتها، كانت قد وضعتها قربها تَحَسبّاً لطارئ صحوته فيراها، فطلب منها بحزن:

- امنحيني الغوص معكِ.

فقالت:

- ألم يكفِك صباحاً؟! ألست خائفاً من أن تشيخ مثل ما رأيت؟!

فأجاب بتودّد:

- بلى ولكن أظنني هذه المرّة سأستعيد ما مضى من سنوات فُتوّتي.

قالت:

- مستحيل، أنا لا أهب غير الموت ورديفيه: الهرم والمرض.

فَخَرَجت من الماء، ليسارع يتبعها فانزلق في الطين ونفذت بين عينيه زاوية صخرة مُكعبة ليموت دون صوت، فالتفتت بندم قائلة في نفسها:

- أنذرتك دون فائدة.

وفي المساء عَثَر عليه رَهط من الصيادين، ورفعوا جثّته ففاحت من جلده رائحة نجسة، ورأوا الدود وقد ملأ وجهه إلى عانته، وسائل أزرق يندلق من أنفه وفيه، كما أنّ لون الصخرة قد بَهُت، لم يصدّقوا حتى قال أحدهم:

ـ إنها أنفاس الموت!

ثمّ تمتم:

ـ خ ن دريس!

فَسَقط قتيلاً بفعل طعنة سكين لم تضلّ طريقها من بين الجذوع والأوراق الخضراء الكبيرة، ليهرب الباقون.

فإذا بهذيانها يمتدّ إلى الجثّة: نَمْ، نَمْ، نَمْ هي نومتك الأخيرة التي لا يعقبها صحو.

الفصل الثاني والعشرون:

أَعْيُنٌ تَكْتَحِلُ بِالجَمْر

راح النهار يتبوَّأ مقعده من المغيب، بينما امرأة تتقلّد تميمة رماديّة ذات عقد أخضر، تحمل طفلها ذا الأشهر العشرة وتجري به نحو معبد الكاهنة خندريس لتقف عند بابه مرتبكة وكأنَّ الخوف يهرش في جلدها، وَضَعَت طفلها أرضاً وجلست على ركبتيها ونادت بصوت باكٍ:

ـ ألا تهبين رضا الحياة لنا يا خندريس؟

وكرّرتها حتّى خرجت الكاهنة وهي في شيء من النعاس، وسألتها بصوت يجرّره التثاؤب:

ـ ما خبركِ يا امرأة؟

ـ طفلي تطويه الحمّى.

فلمست جبينه برؤوس أصابعها مكملة كلامها:

ـ ولا أدري ما أصنع له، لقد أطعمته شيئاً من الأعشاب ولم يتغيَّر شيء.

اقتربت منها ووضعت كفّها اليمنى على جبهته ومسحت خدّيه ورقبته وقالت لها:

ـ لا بأس، عشبة الخلود ستزيل عنه الخطر، الحقي بي.

فتبعتها إلى داخل الكهف لترى ظلمة تتكاثف قليلاً قليلاً، حتّى لمع ضوء قنديل مُعلّق على جدارٍ أسفله صندوق خشبيّ كبير له زوايا من الحديد وقفل ضخم.

انحنت الكاهنة مخرجة من إحدى جيوبها الكبيرة مفتاحاً ذهبيّاً طويلاً فتحت به قفل الصندوق، وبعد أن رفعت بابه فاحت منه روائح الأعشاب والأصباغ المغلقة داخل بعض الصُّرر الصغيرة الملوّنة، ضمّت المرأة طفلها لصدرها أكثر تعبيراً عن خوفها ممّا رأت، فتّشت الكاهنة في الصندوق حتّى رفعت إليها صرّة بدا أنَّ بها شيئاً من العشب وهي تقول:

ـ هذه هي عشبة الخلود، أطعميه منها مقدار رأس الأنملة كُلَّما تساوى نور الفجر مع خيط الظلام الأخير، ونادي بصوت خاضع في الصحراء: "باسمك يا عزيل، باسمك يا عزيل"، خمس مرّات وسترين النتيجة.

أخذت المرأة الصُّرّة وسألتها بدهشة:

ـ أأستطيع فتحها الآن؟

أدركتها قائلة:

ـ لا، فقط في الوقت الذي أخبرتكِ به، وبالنداء الذي لقنتكِ إيّاه.

فخرجت مُخترقةً أثواب الظلام، لتجلس بين الصحو والنوم تنتظر ساعة اقتراب الفجر من أطراف الليل.

راحت نبال النوم تضرب أجفانها، فاحتالت على لذّة النعاس بالحديث للطفل والضحك له حتى أَذِنَ وقت الفجر، فوقفت تتأمّل خيط النور الذي بدأ يبصرها، فكّت الصرّة وأخذت بطرف أصبعها الوسطى قدر رأس الأنملة كما أوصتها، وحين تساوى مقدار النور بمقدار الظلام ألقمت طفلها ما على أنملتها من العشب ونادت بصوت أثقله الخضوع:

ـ باسمك يا عزيل، باسمك يا عزيل.

فانتفض الطفل انتفاضة خَمدت بعدها أعضاؤه وأطرافه ليموت بين ذراعيها، فوقع في نفسها جزعٌ وحزن، ثمّ لامست وجنتيه وهي تنظر إليه بعينين محمرّتين دامعتين، فأدخلته في صدرها وانطرحت باكيةً على التراب بعد أن سقطت منها صُرّة العشب، لتبدو لها الدنيا أضيق من ظلّ الطير.

***

أمضت النهار كلّه تُسعّر نار ثأرها من الكاهنة خندريس، جلست القرفصاء فوق تلٍّ ليس بالرفيع ولا بالقصير تُراقب المعبد طيلة الوقت، فكلّ ساعة يتبرّأ منها النهار تنفخ في جمر انتقامها وشهوة ثأرها.

تصطاد عينها كلّ من يدلف إليها ومن يخرج من عندها حاملاً فوق صفحة كفّه صرّةً سوداء أو لفافة زرقاء كانت أو بيضاء، لتقوم بإلحاقه بالأسى والحسرات الحارّة على ما سيؤول إليه من مصير، وفي الوقت نفسه تشتغل على تشذيب جذع نحيل يشابه ساق الرجل في غلظته لتصنعه رمحاً يقارب طول الصبيّ.

وحين اتكأت الشمس على حافة الغروب كانت ذات شعرٍ مهلهل ووجهٍ لطمه السواد، وعينين ثائرتين حاميتين، ولعابٍ يتأرجح على حنجرتها كلّ لحظة، وصدرٍ تملؤه ثقوب الأحزان، تحدّق بعين قلبها في المعبد لتملأها منه كي يتراكم حقدها أكواماً فوق الأكوام، رفعت الرمح عالياً حيث تحوّل الجذع الجميل إلى أداة تحقّق ما تنويه النفس التي تحرثها أمشاط الضغينة.

وما أن غَرِقت الشمس في جُبِّ المغيب حتّى نَهَضت وَمَشَطت شعرها المهلهل بأصابعها النحيلة ذات الأظفار الطويلة المحشوّة بالقذارة وَقِطَع الأوساخ الصغيرة، فانحدرت من أعلى التلّ قاصدة طرف المعبد

الأيمن وهي تتنفّس بصوت ملحوظ، لتمضي تُكوّم الأحجار بعضها فوق بعض وهي تُكلّم نفسها بشفةٍ لا تقف عن الحركة.

إنّها مينار، عالمٌ مليء بالقسوة والجريمة، حيث لا نشيد للحب ولا صوت للحرية، وحين رفعت رأسها منتهية من جمع ما أرضاها من الأحجار لَمَحت جذوع النخيل فذكّرتها بشتات أهلها، ثم دخلت المعبد وهي تنادي بصوت تحمله رائحة الثأر، شَعَرت الكاهنة بأجراس الخطر تقرعُ بقوّة في أركان عقلها، تراجعت خلفها فتعثّرت بصندوقها الخشبيّ فسقطت على ظهرها، فأوسطت المرأة الرمح في صدرها فارتدّ صدى صراخها من آخر المعبد، فالتقطتها من شعرها الأبيض وسحبتها حتّى باعدت بينها وبين مدخل المعبد واتجهت راكضة نحو الأحجار التي كوّمتها قبل قليل، فوقفت فوق رأسها وبيدها حجرٌ تقلّبه بين كفّيها بحماس كبير بينما الكاهنة يرتفع أنينها من قوّة الطعنة وهي تتوسّل لها بأن لا تفعل، لم يكن صوتها المتوسّل قادراً على أن يؤثر على قلبها الذي استوى حجراً كالذي يدور بين كفّيها الآن، فَرَضّت رأسها بكل ما أوتيت من قوّة في أعصابها.

انطلق دم رأس الكاهنة في كلّ اتجاه: الرمل، رداء المرأة، وجسمها، فأخذت تروح وتجيء بحجر أكبر من الذي قبله وتهوي بصلابته على هدفٍ جديد من الجثّة حتى شعرت بأنّها أطفأت حرقتها على

ابنها، فاضطجعت قريبة من الجثّة، وبعد وقت نهضت تزحف ذاتاً مقهورة لم تشبع من نبش أحزانها التي تكاد تحرق الأرض.

لم تحتمل المرأة البقاء في مينار، عيناها أكلهما الدمع، وهيمن عليهما الحزن، وشفتاها أيبستهما جُمل الهذيان بابنها، جمعت شتاتها ثم خرجت من الجهة المطلَّة على ظلمة الصحراء، تعدو قاصدة آبار مينار، تعدو تدوس بقدميها شوك الأرض، ويتلقف كعبها الأحجار والجلاميد، وتشكُّ الأشواك ثوبها وتثقبه من كل مكان.

بعد وقت من الركض، اتضحت لها الآبار العتيقة بأخشابها الهزيلة، وقفت تنظر إلى أعدادها القليلة، فقررت أن تختار قبرها بنفسها، وَقَفَت على حافة أحد الآبار لترى وجهها في الماء، كان أكبر وأعمق بئر بين تلك الآبار مقرِّرةً وضع حدٍّ لحياتها هذه، وبعد أيام وقف خدم زوجة الملك على البئر لجلب الماء ليجدوها طافية.

الفصل الثالث والعشرون:

دَمٌ يَقطُرُ من سَوطِ المَاضي

حانت اللحظة التي اختارت العجوز ربيبة، حيث تململت من مرقدها ونهضت بصعوبة وذلك بمساعدة متكأ من القشّ، وضِعَ بجانب فراشها ليكون عوناً لها حين تقوم وحين تريد الاستواء على فراشها.

أطلقت بصرها في البعيد، دخانٌ يقف في قلب الصحراء كعكاز مريض، مضت نحوه حيث كانت الشمس نصف مبصرة للأرض، تعبر الأودية وطرق المسافرين مكرِّرة طعنات عصاها على الرمل والحصى، انعطفت من خلف الجبل وانحنت ببطء فوق صخرتين مصفوفتين بعضهما فوق بعض ثمّ رفعت جسمها اليابس عنهما وضربتهما بعجز عصاها فافترقتا لتنكشف لها لفافة صفراء وضعتها هنا قبل سنوات ..

تلفَّتت في المكان ثمّ جلست مستعينة بالعصا ومن ثمّ بوضع أكفّها المرتعشة على الأرض، وبقدرٍ من الصعوبة جلست القرفصاء.

اجتهدت بمحاولة حلّها، حيث نَسِيت كيف عَقَدَتها، صارت ذاكرتها قاعاً ردمها النسيان حتّى أصبحت مريضة بصعوبة التذكّر.

نثرت دمعة حزينة على نفسها لتضيع بين تجاعيد وجهها، أعادت المحاولة مرّة ومرّة إلى أن تَمَكَّنت أصابعها الغليظة من حلّها أخيراً: بعض رقوق كُتب عليها أسطر من توراة العهد القديم، قراءات مبثوثة في عُقدٍ وحبالٍ صغيرة.

صرّت عينها اليسرى وقالت بلكنة باردة:

ـ لم يعد بمقدوري العيش هنا.

وكرَّرتها مرتين فتبدّد الدخان الأسود وتكوّن المارد ونطق:

ـ متى وَلَدته؟

قالت وهي تفكُّ عِصابة رأْسها:

ـ كان ذلك حين نهضت من حلمٍ حرّك أحشائي وعجّل بولادته، وليتني ولدته قطعة لحمٍ ميت.

رفع المارد رأسه للسماء وقال:

ـ لِمَ حبلتِ به إذاً؟!

تحاملت على سنواتها واتكأت على عصاها:

ـ كان ذلك في ليلة خَفَتَ فيها القمر، التقيت أباه عند تلّ قُرب مينار، تلّ طَوَّقه الظلام، كان جلدي يزداد قشعريرة لذيذة من غَزَلِهِ في عينيّ وحاجبيّ.

وصمتت فجأة وقال:

ـ كنتِ جميلة يا ربيبة، وها أنتِ اليوم، لم تربحي من عمرك الطويل سوى سُلافة أيامٍ معه.

أطلقت تنهيدة غارقة في الندم وقالت:

ـ أرجوك لا تزدني عذاباً على عذابٍ اجترته من تحت تلك الليلة وفوق ذاك التلّ.

أسند ذقنه فوق قبضته قائلاً:

ـ ثمّ ماذا؟! أرأيتهِ بعد أن جاذبك الحب تلك الساعة؟!

غَزَلَت بأصابعها المتجعّدة جديلتها البيضاء مُكملة:

ـ آهٍ من هنا حتّى تلك الساعة، لا أنكر أنني هَرِمت من غرامه قبل أن أهرَمَ من تراكم سنواتي فوق ظهري النحيل العاجز عن حمل أكثر من ذلك.

ـ . . . .

ـ غرامه أراه في عيني ابني لكنهما عينان في رأسٍ يفكّر في القتل والسلطة فقط.

ـ أيجتمع الحب والقتل يا ربيبة؟!

ـ نعم، هو في ابني الذي يُحبُّ خبّابة أميرة قصره، وهو نفسه ابني الذي يطيب له القتل والسفك في شعب مينار، الرحمة لا تقرع قلبه أبداً، لا تقرع قلبه أبداً.

ثم جَمَعَت تجاعيد وجهها بين كفّيها ومضت تبكي بكاءً هادئاً لكنه حارق. تأمّل اهتزاز كتفيها اللذين لم يستطيعا الثبات من دفعة البكاء من داخلها، وسأل بصوت منخفض:

ـ والآن وبعد أن أنجبتِ لمينار من يسوطها بظلمه، ويبتر في كلّ يومٍ إصبعاً من أصابع أَملها في نيل ما تريد، ما تظنِّينه فاعلاً غداً؟

ـ هذا إن امتدّت بي الأنفاس إلى الغد، لذا قرَّرت مذ أنجبته ألا أتزوج حتّى لا أكرّر مأساة الخلق من جديد.

فتبدّد المارد إلى دخان أبيضٍ وانطرحت على جنبها تعصر بكفّها ألم حزنها على ابنها، بينما يتصاعد أنينها ويخفت.

***

اقترب بعير الرّاعي الأغبر من جانب الجبل هارباً من الفتك الذي قد يطاله في أيّ لحظة، فتداعى إليه صوت أنينٍ متقطّع، أحسَّ به يحبو على درجات قلبه، أوقف بعيره ونفضَ يديه واندفع نحوه، لا يفصل بينه وبين الأنين إلا الجهة الشرقية من الجبل، التصق بها وأخذ يحاول اقتناص مصدره حتّى تمكّن من تحديده، رفع طرف ثوبه

ووسّع من خطواته ماضياً تجاهه، كلّما خطا خطوة متّسعة ارتفع مقدار الصوت أكثر وَصَعِد إلى أعلى درجات قلبه أكثر.

لَعَق شفتيه بلسانٍ شبه جافٍّ وَضَمَّهُما، وحين ساوى الصخرة التي يأتي من خلفها الصوت أخذت عروق رأسه تنبض استعداداً لرؤية المنظر: العجوز ربيبة متكوّرة بجانب لفافةٍ صفراء والرعشة تنفض عظامها الرقيقة نفضاً بطيئاً مخيفاً.

سار إليها خبيباً ثم حضنها إليه وأوسدها فخذيه وناداها:

- ربيبة، ربيبة.

كانت تنظر إليه بعينين يائستين من العيش، بَصَرٌ يريد أن يودّع ولكنه عاجزٌ عن التوديع، انتزعها الموت من بين يديه تاركاً جثمانها في انتظار اليباس الذي يبتلع الجثّة حين تنطفئ بداخلها الروح.

لن يعود بها إلى مينار، لذا قرَّر أن يودعها باطن الأرض، فمينار لا ينقصها الأموات، فأمضت شمس الظهيرة تجلد ظهره العاري وهو يؤلم القاع بحجرٍ مثلّث التقطه من سفح الجبل ليشرع في حفر قبرٍ يليق بأحزان ربيبة.

وحين أدركت الشمس أنّها مطفأة كان قد فرغ من الحفر، فجعل اللفافة الصفراء كفناً لها وكأنّها طفلة بين يديه من خفّة وزنها وَرِقَّة عظامها الهَرِمة، أوسدها اللحد وأغلق عليها الحصى عِوَضاً عن اللبن،

وحين أتـمّ دفنهـا رنّ في أذنيـه صـوت حزنـها الصـارخ في بطـن الأرض، فخفض رأسه ينظر إلى قبرها وهو يقول:

ـ مـاذا لـو أن الأرض فَتَحَت فاهـا يـا ربيبة؟! مؤكـدٌ أن حزنكِ سيحرق مينار بأهلها.

فمضى والليل من خلفه يبلع الأرض قطعة قطعة.

الفصل الرابع والعشرون:

نُتَفُ ذِكرياتٍ تَلطِمُ الذّاكرة

كان المساء يُقبِّلُ وجنتي مينار، وفي القصر، في ساعةٍ حمراء للملك، انزلقت زوجته نازلةً من السُّلّم تلبس لباساً منكفئاً على جسمها النحيل الطويل، لتجلس بجانبه وتلتقط عنقوداً من العنب وتضع حبّة بين شفتيها المكتنزتين، وقضمت نصفها ثمّ سألته بزهو:

ـ ألا تزال تحبّني بعد هذا العمر أم أصاب حبَّكَ الهُزال.

فَرَكَ يديه ونظر إليها بعين يثقبها الحَرج وأجابها:

ـ بما بقي من أيامي أحبكِ، ولكن . . .

قاطعته سائلة:

ـ لكن ماذا؟

خفض رأسه قائلاً:

ـ لكن . . .

ألقت عنقود العنب وسألته بشيء من الصرامة:

ـ لكن ماذا؟

بَلَعَ ريقه حاسّاً بطعمه المرّ وقال:

ـ لكن انفرادكِ بخيال زوجكِ الأول لم يبرح حياتنا بعد.

وَقَفَت غاضبة وَسَاوَت من لباسها وَعَدّلت شيئاً منه، وَغَادرت مُسرعة على السلم ليأتي صوت انغلاق باب مخدعها بصوت الغضب.

نـهض تابعـاً خطاهـا الـمسرعة ليقـف أمـام البـاب رافعـاً يـده في تـردّد لطرقه، ليصرّ بعد تفكيرٍ سريعٍ ليطرقه برؤوس أنامله السبّابة والوسطى:

طق . طق . طق . طق، ونادى بخجل:

ـ خبّابة.

لـم تـجب نـداءه، غير أنَّه وَضَـع يـده البـاردة على الـمقبض الـذهبيّ في تردّد آخر من فتحه، والدخول إليها بصورة الغاضب حيث ستصفها بأنها ردّة الفعل لغضبها بلا شك.

سمع أصوات تحريك بعض قطع الأثاث ودفع للخزينة الفضيّة الفارغة من الدرهم بسبب هدرها على نفسها هدراً ألحق الضَّرر بموارد مينار، فسألها بصوت أكثر ارتفاعاً:

ـ خبّابة، خبّابة أتسمعينني؟.

ازداد ارتفـاع الأصـوات ليصـل صـوت فـتح أبـواب خزانـة الـملابس، فتشجّع بعدها وفتح الباب ودخل ليجدها قد وضعت صندوقاً كبيراً

مَلأت نصفه بالملابس والحليّ والمجوهرات والصُّرر الصغيرة الخاصة بها.
تَقَدَّم وأمسكها من ذراعها اليمنى والتي كان في يدها لباسٌ كانت قد لبسته في اجتماع ملكيّ قبل أشهر ليست بالقريبة، وسألها باستغراب:
ـ ماذا تفعلين؟
ـ لم تُعر سؤاله أيّ اهتمام، فشدّ قبضته على ذراعها وهو يُكرّر:
ـ ماذا تفعلين؟، إلى أين؟
أطلقت ذراعها من قبضته قائلة:
ـ لِمَ تضعني دائماً أمام عدم حبك لي؟
تأمّل صراخها وهي تكمل:
ـ دائماً تقدّم لي حبّاً مبتوراً بأوهامٍ لا توجد إلا في أحلامك.
عضَّ شفتيه وقال بتأفف:
ـ وماذا بي أن أفعل وأنا أراكِ تنادينهُ في نومكِ وتكلِّمين أطيافه في يقظتك؟
نظرت إليه بدقّة بعد أن سكت ثمّ أكمل:
ـ إنه إحساس يجلدني وأنتِ تسمِّينه أوهاماً.
أدارت وجهها جانباً وأردف:
ـ أنتِ تثيرينني بكلِّ هذا، صدقيني.

أعادت وجهها نحوه لتقع عينه على نمشٍ أحمرَ منثورٍ فوق وَهَج بياضها، ثم رمت بثقلها على صدره لتطوِّقه بذراعين أبيضين وهي تُدافعُ عبرةً التصقت بحلقها وبالكاد قالت:

ـ متى تنسلخ من ظنونك؟

أخذ يهدهدها من كتفها ويسمعها تخاطبه بعطف:

ـ كان عمراً قصيراً لكنه بقي دهراً عجزت عن طمسه من ورقات قلبي، إنّه ركام هائلٌ من الذكريات.

أغمض عينيه وقال لها بأسف:

ـ وهذا ما أرجحكِ بيننا: قلبٌ في الماضي، وقلبٌ في الحاضر، وليتكِ اخترتِ أحدنا ومضيتِ في طرقات اختيارِك.

رَفَعت رأسها تنظر في عينيه وهي تقول بما يشبه الهذيان:

ـ أرى خيالاً منه في غرفتي، وفي شؤون القصر، وفي . . .

سكتت فقاطعها وهو يدفعها بيديه:

ـ وفي ماذا؟

أطبقت أجفانها وأجابته بحزن:

ـ وفي فراشي.

ضَغَط بكلتا كفّيه على كتفيها العاريين قائلاً بلهجة تسوطها الغيرة:

ـ فما عذركِ بغيرتي عليكِ حين خلّفت لكِ أوهامي.

مسحت بكامل سبّابتها دمعة انزلقت من تحت جفنها وهي تخبره:

ـ لا أدري كيف أُفصحُ لك؟ صوته حين أضع خدّي على وسادتي يأتيني بسؤال نديّ: خبّابة أحبكِ وأنا في ترابي، فأجدني أجيبه بلهفة حارقة: لا تقل إنك مُتّ، أرجوك عُد.

وما أن أنهت كلامها حتّى دفنت وجهها بين كفّيها ومضت في بكاء طويل.

***

وفي ليلةٍ كان الظلام ينحت فيها ضوء النجوم، دقَّ نداؤه شحمة أذنها فنفضت عن نفسها الغطاء والتحمت بنسمات الليل الباردة، ظهرت سافرةً عارية الكتفين من فوق شرفتها، رأت خياله يقف تحت الشرفة يلوّح بكفٍّ تقبض على عيدان الورد، فانجذبت إليه كمسحورةٍ تسوقها المردة والشياطين، خرجت تتبع خيالاً يبتعد كلّما ازدادت لحاقاً به، تركض رافعةً يدها اليمنى وهي تصيح له بصوتٍ هائم:

ـ توقّف، خذني إلى مكانٍ آمن.

ثم نادته بصوتٍ أكثر ارتفاعاً:

ـ توقّف، وأمطرني بوابلٍ من القُبل.

لكنّه يبتعد ويبتعد غائصاً في الظلمات لتقف عيناها تراقبان، وتترقّبان، وتُحبّان، فتنبَّهت لأنين رجل مقيّدٍ تتتابع على ظهره العاري لسعات السوط الواحدة تلو الأخرى، أحسّت أنها أفاقت من غيبوبةٍ التهمتها، دعكت عينيها بظهر كفّيها ثم نظرت إليه حيث جنود الملك يحيطون

به كالشهود على خطوط الدم التي ترسمها اللسعات الحارّة على ظهره.

أتاحت لبصرها البحث عن خياله مرّة أخرى في الظلمات التي تثقبها بعض أضواء القناديل البعيدة التي يستدلُّ بها الجنود والخدم، ومن خلف جذوع النخل القريبة منها انسكب في أذنها صوته بهمس يناديها، فاتّسعت عيناها بالاندهاش قائلة:

ـ أأنا في وعيٍ أم في حلُم؟

سمعها الجنود وأقبلوا نحوها وهم ينادون بفزع:

ـ مولاتي خبّابة أبكِ مكروه؟

قالت لهم وهي تشير لجهة الصوت بلغة خائفة:

ـ رأيته وسمعتُهُ هنا، نعم رأيته وسمعتُهُ هنا.

أخذت أعين الجنود تغمز بعضها لبعض بالسخرية ممّا قالت، فأعادت كلامها بصوت أعلى:

ـ رأيته وسمعتُهُ هنا، نعم رأيته وسمعتُهُ هنا.

فاحتال عليها اثنان منهم ليوصلاها إلى مدخلها الخاص لتمضي بها بعض إمائها إلى مخدعها.

دخلت تتقدّم خطوة وتتأخر خطوتين، تترقّب خيالاً منه يتربّص بها في ممرّات مخدعها، واضعةً كفّها فوق جيدٍ اختلط بياضه بحمرةٍ فاقعةٍ وكأنّها تمسك بقلبها المندفع خلف طيف حبيبٍ زهدت بذكرياته

حين اقترنت بملك مينار، وذلك ظنّاً منها أن حياة القصور ستنسيها مرارة فراقه ولذيذ الأيام التي قضتها معه.

وحين وصلت فراشها تأمّلت الملك النائم، جلست وحاولت إيقاظه لكنّها تراجعت على الفور راميةً جسمها المنهك حبّاً لخيالٍ أخذ يطاردها دون موعد وبلا ممهّدات لصدمات رؤيته، أمّا كيف نامت ليلتها؟ فكان سؤالاً لم تجد إجابته حين استيقظت على صوت الملك وهو يستحم في بركته.

وبعدما خَرَج من بركته بوقتٍ قليل وَقَف أمامها في حلّة المُلك وهويقذف بقطعةٍ ذهبيّة إلى أعلى ويلتقطها بخفّة إلى أن زجّها في حجرها ومضى، نظرت إليها ثم نظرت إليه ذاهباً، فالتقطتها وأدارتها بين أناملها وَطَرأ عليها ما لم يطرأ على عاشقةٍ قبلها.

اقتطعت قطعة من الحرير وبسطتها، وطحنت قطعة الذهب بعد دَكّها بحجرٍ فضيّ صغير أملس، وقبضت على زهرة ريحانٍ وفتّتت وَرَقَتها ومزجتها بمسحوق الذهب، ثم أخذت بكفّيها شيئاً يسيراً من ماء المسك وعجنت المسحوق به، ثمّ التقطت عظمة ناقة ملقاة فقامت بنخرها وتنظيفها لتصبح مجوّفة كما تريد، ثم أراقت المعجون داخلها وأغلقتها بباطن يدها وراحت ترجّها رجًّا هادئاً وَتَوَقَّفت حين لمحت طيفه عابراً باسماً لها، فابتسمت بخجل وأفرغت العجين على أرضٍ عشبيّة وراحت تساويها كصفحة لم تتساو حدودها وأطوالها.

فانطبع خياله على العجين فشرعت ترسم بسبّابتها ملامحه المشتاقة عليها وهي تحاكيه وتغازله، وحين انطفأ طيفه فاجأتها الملامح التي رسمتها، فتحرّكت قسمات وجهها فاشتمّته وهمست بصوتٍ يطرقه اليأس:

ـ لك عبيرٌ أستنشقه كما أستمدّ الحياة من التنفّس.

***

وفي المساء نَظَرت إلى نفسها في مرآتها، جمالٌ رافقته الرِّقة والنعومة، راحت تضع ما غَلا ثمنه من الزينة التي حلمن بها نساء مينار، وتتسلّى بالنظر إلى روعة محيّاها.

لم يكن المساء إلا حاملاً للمواعيد العتيدة، تبصر وجهها في مرآةٍ بحجم الكفّ تغفو بين يديها، إذا وجهها أصابه خسوف المآل، فاستدارت لترى في مرآتها الطويلة خياله واقفاً خلفها يرمقها بابتسامةٍ توّاقة، فافترقت شفتاها عن نُطقٍ عَقَدَهُ الصمت لتتحدّث العينان للخيال ببكاء:

ـ أين ذهبت؟ لِمَ لا تعود؟

ابتسم لها أكثر وقال:

ـ أما زلتِ تحتفظين بهدية اقتراننا؟

ابتسمت له بحنين جارف دون كلام مُتابعةً سؤاله:

ـ أأخفيتها عنه كي لا يقع في قلبه شيء من الكُره الزائد لي؟

انحنت تبحث وتُفتّش في خزانتها لتُخرِجَ علبة الهديّة وقالت وهي ترفع جذعها:

ـ نعم نعم، ها هي انظر إليها.

لكن خياله اختفى ومضى إلى موعدٍ جديدٍ مفاجئ، أدارت بصرها في مخدعها وهي تنطق ببكاء:

ـ ها هي، ألا تريد أن تراها؟

جلست على سريرها حاضنة هديته إلى حجرها وماضية في دفع عبرةٍ ضربت حلقها بحدَّة، فسمعت إحدى إمائها تناديها من خلف بابها بصوتٍ يتبعه الحياء:

ـ مولاتي، أتأمرني مولاتي.

فأجابتها بصوت مُتقطّع:

ـ لا، لا، انصرفي.

نَظَرت إلى خاتم السُّم الذي يلمع في بنصرها الأيسر، فقرّرت الطريقة التي تموت بها، فقرَّبته من شفتيها وبشبه تَردّد لَعقت برأس لسانها فصّ الخاتم، لتدوي صرخة ألمها من فتكه بأمعائها في ممرّات القصر وسلالمه الذهبيّة.

وفي ضحى تشييعها أزاح الملك الكَفَن عن جثمانها فَبَدت له كَهِرَّة أتعبها البحث عن دفء يؤويها من شتاء انكبّ على عظامها الرقيقة، سارت عيناه الدامعتان على خدّها الأيسر الذي نُقِطت عليه حبَّة خالٍ

داكنة، ثم تأمَّل شفتيها اللتين أسمعتاه حبها وعتابها، وَنَظَر نظرةً أخيرةً إلى قِطَعِ النمش المتناثر على كتفها الأيمن.

وقبل أن تشتعل الظهيرة قال للمشيّعين بندم:

ـ لقد أتتني بقلبٍ دافئ.

ثم أخذ نَفَساً طويلاً وأردف:

ـ وأتيتها بعقل مَلَأته الشكوك.

فأمر أن يُبنى لجثمانها ضريح يُزيّنه خليطٌ من الورد الأحمر والأصفر والأبيض، وشيء من المجوهرات المنحوتة على شكل حجارة مستديرة تُدار مرصوصة عليه.

الفصل الخامس والعشرون:

بِأيِّ شَيءٍ إلا المَوت

بعد وفاة خبّابة أصيب الملك بطفح جلدي أزرق، مع بهاقٍ ارتسمت خرائطه على جبينه ورقبته، ثم انتشر على جلده ليقع بعد ليلتين على سريره ذي القوائم الذهبيّة، والأرضيّة المغزولة من الحرير الصرف.

ظَهَرَت على جلده جروح سوداء مربّعة الشكل، فاستنجدوا بطبيب من أطبّاء مينار لينظر في مرضه، ليصل بصحبة اثنين من الجند الطوال ذوي العضلات، يحمل في يده اليمنى حقيبته المصنوعة من السعف والمغطّاة بالقماش الرخيص، له لحية مقرونة وشارب قصير أشقر، يلبس رداءً أزرقَ ويتعمّم بعمامة بيضاء مطروحة أطرافها على كتفيه، أَمَرَه أحد كبار العاملين في القصر بعجل:

ـ انظر في مليكي ومليكك، لعلّك تخبرنا بمرضه.

هزّ رأسه وحناه تعبيراً عن الطاعة، ثمّ نظر في وجه الملك بعد أن أخذ بكفّه ذي المعصم المطوّق بفولاذ الشوك، وأطرق يتفحّصه، ثم طلب منهم:

ـ نحتاج لماء بارد، حرارته مرتفعة.

انطلقت جاريتان قصيرتان بيضاوان إلى داخل القصر بسرعة، وفي وقت قليل وضعتا قِدراً متوسطة ذات عروتين عريضتين، نصفها ماء بارد، وعلى طرفها منشفة بيضاء متينة، التقطها الطبيب وهو ينظر في الجاريتين بإعجاب، وَغَمَسها في الماء وعَصَرَها حتّى بدت بعض ناشفة، وساواها على جبين الملك المتجعّد بعد أن أزاح تاجه الذهبِيَّ الموضوع قرب رَأسه جانباً.

هدأت أنفاسه قليلاً ليفتح الطبيب حقيبته ويخرج عشبة ذات زهرةٍ سوداء بها خمس ورقات في كلّ ورقة خمس نُقَط بيضاء، انتزع ورقة منها وأعاد العشبة مكانها، ليسأله أحدهم متعجّباً:

ـ ما هذه؟!

التفت إليه مبتسماً وأجاب بلغة منتصرة:

ـ دواء العشق.

قبض رئيس المراقبين على مقبض سيفه سائلاً:

ـ دواء العشق! ما تقصد بكلامك هذا؟!

نظر الطبيب في الورقة وهو يرفعها في أبصارهم وقال:

ـ ما أعرفه أن الملك كان مغرماً بزوجته المتوفاة "خبّابة" ويعشقها دون عقل، وبموتها انقلبت صحته، وهذه العشبة دواء لمثل هذه الحالات.

التفت الجميع بعضهم في بعض وسأله رئيس المراقبين ثانية:

ـ استغرب أن هناك داءً اسمه العشق!

ـ يجب أن نطعمه الدواء، فلا أريد إضاعة الوقت.

أخرج وعاءً دائريّاً نحاسيّاً صغيراً، وطلب من الجارية مستعجلاً:

ـ املئيه بالزيت الساخن وأحضريه فوراً.

انطلقت الجارية مسرعةً وهي ترفع ثوبها مهرولة، وما أن أزاح المنشفة عن جبين الملك وأعادها مقلوبة، حتّى وصلت إليه تحمل الوعاء فوق قطعة قماش ثقيلة، وقد ملأته بالزيت الساخن، ابتسم لها قائلاً:

ـ ضعيه هنا.

وأشار إلى مكان الوعاء في حقيبته، وضعته ثمّ غمس الورقة المنزوعة فيه بخشبة صغيرةٍ أخرجها من جيبٍ أوسط حقيبته، وأعينهم تنظر باستفهام لما يفعل، لحظات وأخرجها بالخشبة نفسها، ووضعها فوق قماشة حمراء مستطيلة، وتحسّس جيوبه ليخرج سكّيناً صغيرة مغطّىً نصلها بجلد ثعبان، وشرع يُقطّع الورقة إلى قطعٍ صغيرة جدّاً، وهو يحدّثهم:

ـ سأضع هذه القطعة الصغيرة في خمرٍ قليل، يقارب ربع الصواع، ثم ندقّها حتى تتفتّت داخله، ونسقيه.

تَلَفّتوا بعضهم إلى بعض بعد أن انتزعوا أبصارهم من الوعاء النحاسيّ، فسأل سائل منهم:

ـ ثمّ ماذا؟

رَفَعَ رأسه عن القطعة القماشيّة مجيباً:

ـ ثم ننتظر الشفاء بعدها.

فضرب كفّيه للجارية طالباً:

ـ ربع صواع من الخمر.

فانطلقت الجارية، وأحضرت ربع الصواع خمراً، وغمس القطعة الصغيرة فيه، ودقَّها بسرعة وقام بإسقاء الملك رويداً رويداً حتى انتهى، فوضعه جانباً وهو يقول بثقة:

ـ عند الصباح سيكون في حالة جيدة.

تأمّله رئيس المراقبين ثمّ أمر اثنين من الجند بمرافقته إلى منزله، التفّ الجواري حول السرير وساوين ما يجب تسويته، ثم انصرفن إلا اثنتين بقيتا على رعاية الملك.

***

خَرَج الطبيب بصحبة الجنديين من بوّابة القصر الشرقيّة، فوق عربة يجرّها حصانان أبيضان، وهو يجلس أمامهما واقفين، وما أن

تـجاوزوا مسافة عـن القصر ووقفـوا بباب منزلـه في الطـرف الشرقيّ مـن ميناـر، إذا بـحمحمة أفراسٍ شقراء يسوق فرسانـها هودجاً خلفه نساء يُسَقنَ في سلاسل الأسر، وعلى نافذته عـروس مَـحشُوٌّ فَمُها بالرمل، أطال الطبيب النظر فيهم مرعوباً، وهم يُوقفون السير ويضعون أسلحتهم عند حفرة الأسرى، ليُنزلوا صخرةً مكعّبةً على أكتاف أسير، بينما آخرُ يُقبّل القيد الحديديّ المحكم في يديه، ويهوي على قَدَمِ الجندي العريض نائحاً:

ـ دعني أُكفّر عن خطيئتي بأيّ شيء إلا الموت.

فأثخنوه بالطعون، وألقوه فوق جُثث كَدّسُوها لتُعطى للكلاب، ثم ألقوا بجثث النساء في الآبار ليتعطّر ماؤها بالدماء.

بَلَع ريقه الثقيل، وبعينين نصف مغمضتين نظر في العربة وهي تتركه، وعند انقشاع الظلام طُرق بابه، وإذا هو رسول من القصر يُخبره بشفاء الملك، ويُسلّمه صُرّة خضراء بها دراهم معدودة.

الفصل السادس والعشرون:

ظُلُمَاتٌ لا يُفتِتّهَا الضَّوء

اندرج سكان مينار في فقرٍ مهين، حيث بلغ أن يولد الطفل في الظلام لتموت أمه بعدها من النزيف الحاد أو المرض وهي لم تمنحه اسماً بعد.

لقد أذعنوا كثيراً لرغبة الملك فعاشوا عبيداً له ولوزرائه الفاحشي الثراء، يتمنَّون لو يحرِّرون أنفسهم من الظلام ويقفزون إلى النور، فما مينار إلا قاع مروّع بالذل والفقر تدوسه طبقة متعالية مستبدّة لها باع طويل في فاحش المُلْك.

وبعيداً عن الأعين، وحين كانت لُحُفُ الليل تُدفِّئُ المدينة، وَجَدَ علّال نفسه يخطو بقدميه إلى قصر الملك، يُدحِرجُ نظره متأمِّلاً البيد البعيدة، تَجُرّه الأقدار وهو يتمنّى رؤية القصر ومعرفة كيف يعيش هؤلاء بداخله، وكيف يسامرون المتع حتى يطرق الصباح باب السماء.

أحسّ بنداءٍ عميق، حين عَبَرَ طيف سُلافة التي أتت بها المصادفة وأحبَّها وَهَلَكت بين أنياب سبع جائع قبل أن يصادفها بقلبه، قلّب ميوعة بَصَرِهِ في مينار فَرَآها تَتَدثّر في رداء الوحدة أرضاً للوحشة، رأى خيالها يعبره فتحرّك في قلبه لحن العشق اللذيذ، فقال في نفسه:

ـ هو العشق: ضوء يتبع رائحة الأشقياء.

ليضرب سمعه نداء طفلٍ يُنذر أهله:

ـ القتل، القتل.

أرمش بعينيه سريعاً، فرأى جنداً يتبعون الطفل جَرْياً وهو يحاول أن يُسلم رجليه للريح ولو بالقدرة الخارقة، فتماكنوه والتقطوه من أمام أهله وهو يصرخ بصوت مخنوق، فأحرقوه حيّاً وذَرّوا رماده في النهر العابر من خلف مينار، فآمن بأنّ هيمنة الظلم على الأرض من أعجب ما تكون الأشياء.

تَنَفّسَ مِلء صدره، فلمحه سائس خيول الملك المتوسط الجسم فلا هو بالطويل ولا بالقصير، ذو الوجه المربّع، والأنف الضخم، والعينين السوداوين وكأنّهما خطّان، حيث كان يحمل قنديلاً تكتم رائحة زيته أكثر ممّا تضيء، فناداه بلغة صارمة:

ـ ماذا تفعل عندك يا هذا؟

مرّرت حنجرته ريقه الثقيل فتنهّد بصعوبة:

ـ ع ع عابر طريق ليس إلا..

حدَجه بغضب قائلاً:

ـ احذر أن أراك هناك ثانية، أفهمت؟

أومأ برأسه أن فهمت ثم انحدر إلى جهة الصحراء، فدبّت على سمعه خطوات قادمين يحدوهم الظمأ، ليقفوا بجوار بئر مثلَّثة الرأس، ليلقي أحدهم بدلوه الخشبيّ الصغير، حتّى يجذب لهم الماء ليطفئوا به لهيب الظمأ المتّقد في حلوقهم وألسنتهم.

أسمال الليل مُدّت تحت السماء، انصرف إلى بئرٍ كبيرة خلفهم، فالتصق بحَجَرها المرصوص وطينها المُسوَّى بها، مُرسلاً سمعه المتجسّس إليهم، بَلْبَلةٌ لا تُفهم، فأخذ بِدقّة أكثر فسمعهم يتناوبون في شتم الملك، وصوت أحدهم:

ـ سمعت أنه أمر جنده فكوَّموا الرؤوس عند بوَّابة قصره الغربيّة.

وصوتُ آخر:

ـ وأُمر بأناس وَأُلقُوا من رؤوس الجبال.

وصوتُ آخر:

ـ ومنهم من خُزِّقُوا بالنبال.

وصوتُ آخر:

ـ ومنهم من رُجموا بالحجارة.

وصوتُ آخر:

ـ وأقلُّهم من يُساطُ حتّى الموت.

فأكمل معهم الحديث من مكانه قائلاً بصوت شديد الانخفاض:
- مينار ما هي إلا فضاء تتقطّع فيه الرؤوس، وأكفُّ ليلٍ تتملَّص منها فواجع الأحلام.

وقبل منتصف الليل رحلوا تاركين آثار مَبَارِك إبلهم وبقايا دمنها في المكان، ابتسم بخبث وجلس بجانب البئر ينسج خيالاته حتّى تَجَمَّع الوَسَنُ بين أجفانه وَنَام وَحيداً في العراء.

وحين أدار الفجر وجهه للمدينة بعد ليلٍ بهيم، كان وقتها يحلم: بغيمة حمراء فيها أصوات متداخلة وهمهمة تُظلِّل قتيلاً يمشي على أشلائه والجلادون يجلدون ظهره بسياطهم المجنونة، ومن الجهة الأخرى رجلٌ يعدو هارباً حيث كانت الحجارة تطارده من كُلِّ ناحية.

فَصحا من نومه فاتحاً أجفانه عن سماء ممزوجة بالخيوط البيضاء والسوداء من الفجر، فابتسم لأنّه اطمأنَّ أنَّه كان يحلم، ليرى الفجر الرمادي قد فضح سقوف مينار، وقف ونظر إلى القصر البعيد.

وفي الساعة التي اتّقدت فيها شمس ذلك النهار اقترب من السوق المجاور لسور القصر، فصادف أحد رسل الملك يركب حصانه الأبيض ذا السرج المنقوش متّجهاً إلى السوق، فاستتر منه خلف شجرة كبيرة ذات جذع عريض، واستبصره حتى رآه يقف على صخرة بيضويّة خُصِّصت لإلقاء الأوامر والقرارات على أهل مينار وكأنّه يتوسَّط أرض الموت، وعند استقامة جذعه نَشَر صحيفة صفراء ذات

حدود مشقّقة ولون آذاه التَّلَف، فقرأ بصوتٍ عالٍ بَلَغَ الواقفين في السوق ليأتوه ينفضون أيديهممن متاعهم، حيث قرأ عليهم:

- أمرٌ: بعمارة المعبد القديم.
- أمرٌ: بإعادة صناعة البوّابة الشرقية للقصر التي تطلّ على السوق من الجزية التي ستؤخذ نهار الأول من كل شهر قمري.
- أمرٌ: بفتح خزينتين لتمويل الجيش تُملآن من اليوم الثالث من قراءة هذه الصحيفة، وذلك بمقدار ثلاثة دنانير من كل بيت في مينار وذلك لمرّة واحدة في العام الواحد.
- أمرٌ: بنصبِ خمسين مشنقة بجانب الجبل، ليساق إليها أسرى حربنا التي انتصر بها الملك على القبائل المجاورة، ليعلّقوا عليها عبرة لأهليهم ولكلّ من توسوس له نفسه بالسوء.
- أمرٌ: بأنَّ على كل بيتٍ من بيوت مينار صناعة عشرة رماح طويلة طول واحدها كطول الرجل، تُعطى لأمين مستودع الأسلحة.
- يُعلّق المخالف لأوامر الملك بين عمودين خشبيين وتشعل النار من تحته.

ظَنَّ الواقفون كل الظنّ أنه سيستمر في قراءة الموت من سطور الدماء، فتفرّقوا من أمامه وهم يُغمغمون ويهمسون بعضهم لبعض.

اندهش علّال كما يكون الاندهاش وهو بين الواقفين ليصل إلى سمعه تناجي اثنين يقفان خلفه حيث قال الأول للثاني:

ـ لم يكن رُسُلُ الملك يقرؤون الأوامر إلا في صحفٍ من دماء.

فأجاب الثاني بحكمة:

ـ للحاكم في شعبه شؤون.

فعاد على عقبيه ليشاهد الشمس المنقوطة بالدم وهي تقبّلُ سماء مينار، اندفع نحو العراء باحثاً عن خطيئته سُلافة، تلك التي لم يُدرك السبيل إلى نهايتها، فكثيراً ما تأخذه أطيافها إلى أسفل بطون الأودية وإلى رؤوس التلال، نظرةٌ واحدةٌ اختلسها ذات مساء أودعته عاشقاً بقية دهره.

مضى يرسم ملامحها بكسرة فحمٍ صغيرةٍ على جذعٍ عريضٍ ظامئ ويأخذ في تأمّله مليّاً ليندفع يُقبّله بشراهة بينما الصِّبيةُ يراقبونه عن كثب، مختبئين خلف تلٍّ صغيرٍ يتضاحكون ويتغامزون بجنونه.

أعتق الجذع من انقضاضه تاركاً على قَسَمَاته وَثَغَرَاته لُعاباً خالطه دم شفتين مُتحمِّستين، لم يكن مُبالياً حين واجه خيالاً يلبسه جذعٌ شديد القسوة والصلابة.

أفاق من سكرة هيامه، أحسّ لحظتها بآلام ملتهبةٍ فوق شفتيه المنتفختين، استلقى بعدها تحت شجرة جرداء كي يستعيد شيئاً من أنفاسه، فتوسّد ذراعه اليسرى وقرّر أن ينام جزءاً قصيراً من النهار، فجاءته في حلم قصير: رآها تتمرّغ تحت قدم أحد الجنود في لحظة هو يحسُّ بوطأة الأقدام على جسمه النحيل.

فصحا متكئاً على يديه، مُدركاً أن جرحه المتشكّل بالغياب لم يبرأ بعد، أسند جبهته على الجذع متمنّياً لو أن سُلافة عاشت إلى الآن كي يراها مرة واحدةً لا شيء، وأن يبكي أسفل قامتها، لقد أضحى العشق صدعاً نَصَفَ حياته وأحالها إلى بيتٍ خَرِب، راح يُصغي لصراخ الريح من بين أعواد القصب الطويلة، آخذاً في النظر هنا وهناك وهو يفرك عينيه ويَتَفَحّص الأرض بإمعانٍ شديد.

نهض ومشى متخبّطاً إلى منزله لتمرّ به الأقدار من البوّابة الشمالية لقصر الملك ليراه سائس الخيل ويناديه مرّة أخرى بلهجة مهاجمة:

- من هناك؟

- ليس إلا أنا. (قال)

- وما الذي أتى بك من هنا؟

قال وهو يختار كلماته ببطء:

- ليس إلا قَدَري يا سيّدي.

سعى السائس إليه وقبضه من كتفيه ليدفعه إلى داخل القصر، حيث أصدر كبير الجند حكمه فيه فوراً، فأجلسته يدٌ ضخمة يتبعها صوتٌ هازئ:

- حكموا عليك بالموت سجناً.

الفصل السابع والعشرون:

زُمرةُ الأشْقِيَاءِ تَقْرَأُ دَفْتَرَ المَعْصِيَة

نَقَلَ ظهر الليل أنين المحرومين، وسُجِن علّال في سجنٍ كبيرٍ غَصَّ بالسجناء والمعتقلين، قَلّب عينيه في ثقوب الضوء ومنافذ الهواء، فأحسّ أن الأشباح تخرج من سقف السجن وجدرانه القاتمة.

وفي الركن البعيد من أركانه مجموعة من المساجين في أعناقهم وأيديهم أطواقٌ من الحديد يَتَقدّمهم رجل نحيل، وبقربه رأى سجيناً ممسكاً بكرسيٍّ مكسور يُكلّمه طيلة الوقت، وفي جهة مقابلة تتقابل أربعة رؤوس مغطّاة بقماش خِيط على قدر رأس الإنسان، نسج من الغزل الخشن الأبيض، وقُيّدت أيديهم من خلف ظهورهم بسلاسل عريضة الحلقات، يقبع بقربهم سجينٌ ممتلئ الجسم، عريض الصدر، صغير العينين، على ذقنه أثر جرح غليظ.

وفي الركن الآخر أربعينيٌّ أعور عليه عِمَامةٌ بيضاء إحدى رجليه مبتورة، يسعل من رئتين قد تجرَّحتا من نتن السجن، نهض يتوكّأ على عكّازٍ خشبيّ مشطور من مقبضه يَجُرُّ جسماً معطوباً، ماشياً تجاهه وهو ينشد الشعر القديم لأهل مينار ويُكرّره إلى أن وَقَفَ أمامه فناداه:

ـ أتأذن لي بمجالستك قليلاً؟

ارتفع رأس علّال حتّى استوى نظره في وجه الأربعينيّ، فمطَّ شفتيه جانباً وقال موافقاً:

ـ لك ذلك.

رمى الأربعينيّ عكازه جانبه واتكأ على كفّيه حتى استوى فسأله علّال:

ـ أتشعر بظلم أم بحقد؟

أطلق الأربعينيّ تأفّفاً طويلاً وأجاب:

ـ كأنَّ بي جرحاً يتغلغل في جرح.

ـ وكيف تُفسِّرُ هذا؟

ـ لأنني قبسٌ منه.

ـ أهذه ثقة أم تأويل؟

قال بعد أن هزّ رأسه ببطء:

ـ ليست إلا حرباً صَمّاء.

ـ أكنت من المحكومين؟

أجاب بلهجة متأسِّفة:

ـ نعم.

ـ وَلِمَ لم ينفّذوا حكمهم فيك؟

ـ لا أدري، أظنهم قصدوا تعذيبي بالحياة التي أنتظر فيها الموت.

ـ آهٍ من يومك هذا.

سَكَتا قليلاً فقال الأربعينيّ وكأنّه يتذكّر:

ـ تماماً حين نقلوا القتلى على العربات ثم دفنوهم في حفرة واحدة.

ـ وأنت تنظر إليهم؟! ماذا كان وقع ذلك عليك؟

حكَّ الأربعينيّ خدّه الأيسر قائلاً:

ـ لم أسمع إلا تأويل الرياح وهي تقول: إن الأيام الباقية لك قبور.

ـ . . . .

ـ لم أنسَ تلك الأرملة حين كان الدم يتدفَّق من ثدييها وهي تنوح في رجائهم ألا يفعلوا.

ـ عجباً للحقد الذي لا يجف.

وأردف الأربعينيّ لكلامه:

ـ وللدماءِ التي لا تجف.

نظرا في وجهيهما وقتاً ليس بالقصير فسأله الأربعينيّ:

ـ هل رأيت جمجمةً يُصبّ فيها الدم؟

ـ ماذا؟! هذا منظر يتفتّت منه حاجب الليل.

ـ هي جمجمة صاحبي الذي كان معي في السجن قبل أيام.

ـ أتصدق، إنّ غَضَب ملك مينار كالراية المرفوعة، علامة نصر ظالـمة، إنني بدأت أتخيلكم جماعات محمولة في مقبض نصل واحد.
قال مبتسماً بحزن:
ـ لا تتخيّل أكثر من أعناقٍ ذُبحت وأعناقٍ هُيّئت للذبح.
ـ أأباحوا فيكم كلّ هذا؟
ـ وأكثر، لدرجة أننا آمنَّا ببياض الأسود.
ـ أيكون الأسود بياضاً؟
أجابه وهو يحني رأسه:
ـ نعم حين تَسكَرُ أرض مينار من تحتنا دون أن نسكب في رملها كأسها.
ـ لا أملك إلا أن أقول إنه جحيم تَوغَّلتم في ناره.
مسح الأربعينيّ وجهه بكامل كفّيه ببطء وقال:
ـ كدت أفقد عيني حين وضعوني في جوف حفرة صخريّة، قَلَقي وقتها كان مشدوداً إلى قلقٍ قادم.
ـ . . . .
ـ فليقتلني الرب إذا لم أبكِ صحبي أبد الدهر.
ـ وماذا عن جثثهم؟
قال هازئاً:
ـ اسأل الشمس عمّا بقي منها، وغير ما حفظته في الرمل.

ـ إذا كان هذا ما فعلته الشمس فلا ثقة لي بالنجوم إذاً.

ـ يا صاحبي النجوم التي لا تثق بها تجيد تقبيل أكفّ الشعراء كلّ مساء.

ـ لتطلب لهم الموت في نفسها أم ماذا؟

ـ لا، بل لتذيب شَكّهم في يقينهم.

وراحا يراقبان ضوءاً تَفرُكُهُ الشمس على نافذة السجن، ضوءاً ذا خيطٍ أحمرَ تتداخل فيه الصفرة، والأربعينيّ يُمرّرُ عود الثقاب بين أسنانه العلويّة تارة والسفلية تارة، ويقرأ مستقبل علّال بعينين اعتلاهما حاجبان أبيضان كثيفان تعلوهما جبهة كثيرة التجاعيد، ثمّ أطبق شفتيه على عود الثقاب حين قال علّال بصوت رخو:

ـ أتعلم، اشتقت لرؤية شوارع مينار رغم ضيقها.

ثم نظر إلى الأربعينيّ مُكملاً:

ـ ورغم كآبتها.

سَكَتَ قليلاً ثم سأل متابعاً:

ـ لم تقل لي، ماذا فعلوا بشوارع المدينة؟

نظر الأربعينيّ إليه وقال بلسان ثقيل:

ـ أخذوا النساء والغلمان وقطعوا بهم الطريق.

ـ وفي حفرتك التي ذكرت لي بالأمس، ما كان أمرك؟

أجابه وهو يَدعَكُ جلد كفّه اليمنى:

ـ كان ضوء ذاكرتي يغمرني في ظلمتها.

ـ أظنّ الوقت كان يأتيك محمولاً على ألواح البطء.

اعتدل الأربعينيّ في جلسته ونظر فيه وقال:

ـ تماماً حين يصلني بطؤه ليبصم الفجيعة في مقلتيّ.

ـ تتكلَّم وكأن اليأس قد جَرَف أعماقك.

قال له حين تنهّد:

ـ لا تلمني في ذلك الفضاء الذي نسج في الموت قمصانه.

ـ قُلْ لي، هل للحب خيمة واحدة في سنواتك؟

فهمست شفتاه المتشقِّقتان ببطء:

ـ نَعَمْ، وكان بها امرأة تمنّيت لو مُتُّ على زندها.

ـ أنت تُبدع في معصيتك.

فقال بِضعاً من كلمات:

ـ هذا ما أخذته من ذائب الحديد.

ـ يا إلهي، عذابك أغنية يسيل دمها في شرايينك، أتحبّها؟

ـ بقدر ما سَبَقَت معصيتي توبتي.

فقال علّال له بغضب:

ـ أنت عاصٍ تسخر من أرضك المظلمة إذاً.

ـ أينما كنت وكيف ما كنت، ستجدني أبتدئ معصيتي.

ـ أيّ نهرٍ تجري فيه يا رجل؟!

ـ نهرٌ واحد.

سأل علّال باندهاش:

ـ نهر ماذا؟!

ـ نهر الشقاء.

قال علّال بصوت متحسِّرٍ غاضب:

ـ ليتهم صلبوك.

ـ لن أكون وقتها إلا ميتاً شاهداً على صمت الجنائز.

ـ وهل أضأت مصباح روحك وعقلك كي تقرأ زمانك؟!

فقال الأربعينيّ مُلتفتاً إليه:

ـ لا، لم أقرأ سوى قصائدي التي كُسرت أجنحتها.

ـ م م م مم وهل سافرت قبل سفرك هذا؟

ـ كثيراً.

ـ متى وإلى أين؟!

أجابه بشيء من البرود:

ـ من ظَنٍّ إلى ظن.

ـ وكيف؟

ـ أقيم في ضفاف الشهقات، وأرحل في الآهات.

سأله علّال متعجِّباً:

ـ أهذه أسفار أم أمينات عقلٍ خَرِفٍ؟!

فأجاب الأربعينيّ مُتحسّراً:

ـ الأمنيات، آهٍ الأمنيات،كم رفضت مصالحتي.

ـ وما كانت أمنيتك وقتها؟

ـ أن أموت جوعاً.

قال علّال بدهشة:

ـ ما هذه الأماني؟! قد يقتفي شبح هذه الأمنية خطاك فعلاً.

ـ الجوع، جنّة القتل.

ـ لماذا تزهو كثيراً هكذا؟!

ـ لأنني متأثّرٌ منّي.

ـ ألا تعرف كيف تجمع جراحك كغيرك؟!

أجاب الأربعينيّ بإحباط:

ـ لا.

ـ وَلِمَ؟

فقال باستسلام:

ـ لقد اجتازت جراحي كلّ سياجٍ وضعته أمامها.

ـ أنت تتمزّق كلّما حاولت أن أتهجّى أساريرك الممدودة.

ـ كما كنت أوضّح لك أنني دمٌ نزف.

ـ وصاحبك؟

ـ ما به؟

ـ ماذا عنه؟

قال الأربعيني في أسف:

ـ سُلَّ لسانه.

ـ سُلَّ لسانه؟!

ـ نعم، سُلَّ لسانه.

ـ كيف حصل له هذا؟!

ـ هي طريقة في تأديب السجناء.

فأراح الأربعينيّ ظهره النحيل إلى جدار السجن المبنيّ من الصخر الصلد منشغلاً في لعق أصابعه الضخمة ذات الجلد اليابس.

***

وعند الفجر كان علّال يراقبه جالساً كما هو، جسماً مُحنّطاً لا يبدو منه أيّ حراك، وعندها اعتدل الأربعينيّ في جلسته القرفصاء وحَكّ أسفل أنفه فسأله علّال بلغة غير مستغربة:

ـ وصاحبك الثاني؟

فَرَكَ الأربعينيّ أصابعه بعضها ببعض وأجاب بعد صمت:

ـ قتلوه وقطعوا رأسه ورفعوه فوق الرؤوس ابتهاجاً.

ـ وصاحبكم الثالث، لا تقل لي . . .

قاطعه مجيباً:

ـ بل سأقول لك، ضُرِب ثمانين سوطاً بعدها ضُربت عنقه.

قال علّال بلسان مُعاتباً:

ـ مؤكدٌ أنهما كان متمرِّدين في محبسهما.

ـ كيف يتمرّد سجين وبجانب السجن جنديٌّ يتوسّد سيفه، فنحن في مدينة حاشية الحاكم فيها لا تُفكّر إلا في ملء جيوبها، فهم قد يمزّقون جيوب البشر من أجل المال إن استطاعوا.

ـ . . . .

وَثَنّى الأربعينيّ متابعاً:

ـ عذابات كثيرة لم أنسها في حياتي هنا.

ـ أتذكر شيئاً أيضاً غير ما ذكرت لي؟

ـ أيضاً تلك المرأة الحامل التي ذبحوا والدها.

ـ . . . .

ثم ثنّى متابعاً:

ـ وَضَعَت طفلها بعد أن قيّدت نفسها بالرجاء المُتعب.

ـ وأين هي؟!

ـ بعد أن وضعت طفلها بأيام، رأيناها وقد مزّقت أردانها من شدّة عطش طفلها، وذلك بعد أن وضعوا لها قدحاً من الدم لتسقيه.

ـ قاتلتهم الإنس والجن، قاماتٌ لا تسبح إلا في القتل، كلامك هذا تهرب منه حتى اللغة نفسها.

وأجهش الأربعينيّ:

ـ نحن أناسٌ نُرتّل كل يومٍ أحزاننا، لدرجة أنّه في اليوم التالي طلبوا منّي أن أقتل أهلي وصحبي.

صاح به علّال:

ـ ما تقول؟!

ـ . . . .

فأردف علّال واثقاً:

ـ لا يسعفك نطقك الآن، تجيء ذاكرتك وتذهب، فما يعذبك؟

ـ لقد قتلت كل نساء الحي.

ـ أجننت؟!، صدقك هذا يجرح رئتيك.

فقال الأربعينيّ بنبرة باكية بشدّة:

ـ جريمتي هذه ستسيل في عروقي حيّاً وميتاً.

ـ الحق كان أن يودعوك للهلاك، جنون، جنون.

ـ إلا امرأة واحدة لم أقتلها.

ـ . . . .

ـ تركتها حرّة كالمطر.

سأله علّال بسخرية:

ـ أأضمرت لها الحياة؟! تريد قول ذلك لي.

فأجابه بثقة:

ـ أجل، امرأة وددت لها قمصاناً مملوءة بالنجوم لأصير وريثاً لها وهي حيّة.

قال له علّال بنفور:

ـ لا أفهمك، تُقيّد مرّة ليلاً، وتطلق مرّةً شمساً.

ـ هي يا صاحبي جمرة دفينة أخاف منها، لكنني سأبوح بأحشائي لأصدق معك.

قال له وهو يهزُّ بطريقة الرفض:

ـ لا أخفي عليك أنّ نفسي وسوست لي بما تدسّه في أحشائك.

ـ إن جراحي جامحات غاضبات علي، وتعبت من مقايضة هذا المصير.

صمتٌ امتدّ بينهما فأكمل:

ـ لا أتخيّل عظام القتلى إلا عكاكيزنا التي نضيء بها خطانا و . . .

قاطعه علّال سائلاً:

ـ أخبرني، ألا تشتهي شيئاً؟

ـ . . . .

ردّد عليه سؤاله:

ـ أخبرني، ألا تشتهي شيئاً؟

فكأن الأربعينيّ تنبّه من غفلة أخذته وأجابه متحمّساً:

ـ إي والرب، لأنني أتجزّأ في ذاتي، أتمزّق في داخلي.

ـ ماذا تشتهي إذاً؟

أجابه بلهفة جامحة:

ـ زهرة أشتمّها قبل موتي.

وما أن أكمل جملته حتى دَخَلَ جنديان طويلان واقتاداه خارج السجن، فَضَربا عنقه وإلى أسفل نَكّساهُ وَشَقّا أحشاءه، بينما علّال يراه من نافذة السجن في الوقت الذي يَتَدَلّى فيه خيط البياض، ليَجُرَّ على النافذة ريحان دمعه.

الفصل الأخير:

جَنَائِزُ تُـمَزِّقُ الأكْفَان

عند انفلاق الفجر وُضِع جثمان الأربعينيّ فوق حمارٍ أعرجَ شديد البياض، قُطِعت إحدى أذنيه وأُعطِيَ حبله لاثنين من موالي الملك ليطوفا به في الأسواق والطرقات، كان المولى الثاني يمشي خلف الحمار وينخس مؤخرته بشيءٍ من القوّة حتّى ينهق نهيقاً عالياً. تَبِعَهُ الغلمان وَجَرَى الصبية عن يمنيه وشماله يَتَفرّسون في الجثمان المرشوش بقطرات الدم الكبيرة والصغيرة.

مَرّ من بين دكاكين الورّاقين والعطّارين ليقِف كُلّ من كان جالساً في دكّانه مشاهداً اهتزاز الجثمان ذي الساق الدقيقة التي انحسر عنها الرداء من مشي الحمار الأعرج.

تبعته الأفواج والجماعات بأصوات الشتيمة والقدح في الملك ووزرائه وحاشيته، فتزايدت الجماعات حتّى صارت مَدّاً بشريّاً طويلاً يمشي

خلف حمارٍ أعرجَ يحمل جثماناً انحسر رداؤه عن ساق نحيلة، وكأنَّ الغضب شَقَّ عن نفسه خارجاً من قعر النفوس وقهرها، ليُشكّل قبّعة الانتقام فوق رؤوس هذا المدّ البشريّ.

ذهبت الأيدي الصغيرة قبل الكبيرة تلتقط الأخشاب والخناجر والرماح الصغيرة، والأحجار الصلبة لترفعها للسماء علامةً للثورة الإنسانية المقهورة، اشتعلت الأصوات الثائرة، والتهم الخوف المولِيين ليقطر عَرَق الذُّل منهما إلى أن قُذِفا بالصخور وضُربا بالأخشاب، فأوقف صبيةٌ الحمار وأنزلوا الجثمان لتدُكَّ الجموع المولِيين بالأرجل كاتمةً صراخهما الذي حَمَل رجاءهما حتّى فارقا الدنيا وهما تحت الأرجل والأحذية.

اختنقت الشوارع بالأجساد البشريّة الغاضبة الثائرة، لتلتقي فروعها في مصبٍّ واحدٍ يتّجه نحو قصر الملك، لَعَنات وشتائم وجُمل وَعِيدٍ تعبر من فم إلى فمٍ على هيئة صرخات منفجرة، فانتبه المراقبون الواقفون على سور القصر إلى أن هناك سيلاً بشريّاً ثائراً لا تردّه جُدُرٌ أو جيش، فانطلق رئيس المراقبين عابراً ممرّات القصر ومعرّجاً إلى مخدع الملك صائحاً بصوته المبحوح:

ـ مولاي، مولاي.

استوقفه حرس الملك المتناثرون في كُلِّ زاوية وهم ينادونه من كُل صوب:

ـ ما بك؟!

وآخر:

ـ ماذا هناك؟!

وآخر:

ـ انتظر انتظر.

لم يكن يَردّ على أيٍّ منهم، فالخبر يجب أن ينقر سمع الملك قبل الفوات، فاندفع جمعٌ من الحرس والجند إلى السجن شاهرين أسلحتهم البيضاء، فطفقوا مسحاً بالسجناء والذين كان من ضمنهم علال حيث لقي حتفه نحراً من سيف جنديٍّ أقرع قصير القامة، حيث ابتدأ به حين دخلوا السجن.

زحف الثُّوَّار نحو القصر على هيئة موج بشريّ يرتدي الغضب، وهدفه أن يغرف من الدم، لقد طال الدمار كل شيء لأن ملك مينار أمضى فترة حكمه لا يتكلّم إلا بلغة السلاح في زمن الحرمان والظلام.

قفزوا الأسوار ونفذوا من الشبابيك والأبواب كالجراد، يحملون كلّ ما آمنوا أنه يَقتُل من الحديد والخشب والحجر والسلاح الأبيض القصير.

لم تُجدِ أيّ مقاومة معهم فما كان من الجنود إلا التراجع ليشكِّلوا قوّة تُدافع عن مخدع الملك المنفرد بحزنه على زوجته، فقتلى الجند يتزايدون كلما تقدَّمت الثورة بخطوات قائديها، شعبٌ يصرخ في وجه

الظلم والوحشيّة، قادمٌ ليحزَّ الرأس الذي أمضى زمناً يحزُّ الرؤوس البريئة والمتمرّدة.

سمع الملك أصوات الثائرين تقترب من الباب، وَوَقْعُ الأسلحة بعضها ببعض يَصكُّ طنينه في أذنيه بوعيده، وصرخات المقتولين وأنينهم تتزايد، فوقف محدِّقاً إلى الباب والرجفة تطوف بلحمه وعظمه.

دُكَّ الباب عليه مرّة ومرّتين، وفي الثالثة كانت الأصوات الجماعيّة تُحرّضُ الأفواج الثائرة على بذل المزيد من القوّة لكسره، فكانت دَكّةً خلعته لتتزاحم البشر منه وتهوي بما حملته أيديها عليه في غرفةٍ طالما ذاق فيها المتع والملذّات.

هَشّموا عظامه وملؤوا جسده بالطعون والكسور، وتنازعوه كما تتنازع السباع الفريسة، كُلٌّ يُقسِمُ على حزّ رأسه حتّى انفصل من بين الفرقتين فلا يُعلم أيُّ الأنصال نال من عنقه، ليسحبوه بعدها ويلقوه في بركته جُثّة تسبح في الدم، دافعاً ثمن مكيدة شهوة الظلم، ثمَّ تَوزَّعوا بعدها يكسبون من قصره كُلَّ باهظٍ وثمين.

انتهت

ماجد سليمان

سبتمبر / أيلول ٢٠١٢م

- ليس بمستغرب على ماجد ابتكار المدن التي غالباً ما يخترعها في رواياته.

جريدة العرب اللندنية

- الجريمة والعقاب في نسختها العربية.

جريدة السياسي الجزائرية

- وحده إحساس الكاتب المتعمق في قراءة مجتمعه ينتج مثل هذه الرؤية المتبصرة.

جريدة الرأي الأردنية

- كان مغامراً باتجاهات فنية محققاً النضج الفني بلغة شعرية سردية.

جريدة عكاظ السعودية

ماجد سليمان، أديب سعودي

تَنَوَّع أدبه بين الكتابة الشعريَّة والروائيَّة والمسرحيَّة والقصصيَّة.